عبد الوهاب القصاب

الحرب العراقية - الإيرانية
١٩٨٠ - ١٩٨٨

قراءة تحليلية مقارنة
في مذكرات الفريق الأول الركن
نزار عبد الكريم فيصل الخزرجي



المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

الحرب العراقية - الإيرانية

1980 - 1988

قراءة تحليلية مقارنة

في مذكرات الفريق الأول الركن

نزار عبد الكريم فيصل الخزرجي

الإهداء

إلى الـدم العراقي النبيل الذي سـفح دفاعًا عن حياض الوطن في أشرس حرب خاضها العراقيون للدفاع عن وطنهم وقيمهم.

إلى الأجيال الشابة الجديدة دروسًا وعِبَرًا...

أهدي هذا الجهد المتواضع.

الحرب العراقية - الإيرانية

1980 - 1988

قراءة تحليلية مقارنة
في مذكرات الفريق الأول الركن
نزار عبد الكريم فيصل الخزرجي

عبد الوهاب عبد الستار القصّاب

الغلاف: صورة من «معركة تحرير الفاو»، 1988

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
ARAB CENTER FOR RESEARCH & POLICY STUDIES

الفهرسـة أثناء النشـر إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
القصاب، عبد الوهاب عبد الستار
الحرب العراقيـة - الإيرانية، 1980-1988: قراءة تحليليـة مقارنة في مذكرات الفريق الأول الركن نزار عبد الكريم فيصل الخزرج/ عبد الوهاب عبد الستار القصاب.
176 ص. : ايض.، خرائط ؛ 22 سم.
يشتمل على ببليوغرافية وفهرس عام.
ISBN 978-9953-0-2930-6
1. الحرب الإيرانيـة - العراقية، 1980-1988. 2. الخزرجـي، نزار عبد الكريم فيصل. ب. العنوان.
955.0542

العنوان بالإنكليزية

The Iraq-Iran War
1980-1988
A Comparative Analytical Reading of the Memoirs of General (General Staff) Nizar Abdulkareem Faysal Al-Khazraji
by Abdulwahab Abdulsattar Al-Qassab

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن اتجاهات يتبناها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

الناشـر
المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
ARAB CENTER FOR RESEARCH & POLICY STUDIES

شارع رقم: 826 منطقة 66
المنطقة الدبلوماسية الدفنة، ص. ب: 10277 الدوحة قطر
هاتف: 44199777 00974 فاكس: 44831651 00974
جادة الجنرال فؤاد شهاب شارع سليم تقلا بناية الصيفي 174
ص. ب: 4965 11 رياض الصلح بيروت 2180 1107 لبنان
هاتف: 8 991837 1 00961 فاكس: 1991839 00961
البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org
الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

الطبعة الأولى
بيروت، كانون الثاني/ يناير 2014

المحتويات

قائمة الخرائط

مقدمة

كلمة لا بدّ منها

مــا دفعني إلــى كتابة هــذا الكتاب هــو المذكــرات الأمينة والمتميِّزة التي كتبها واحدٌ من الشهود المهمين على حربٍ ضروسٍ عاصرها منذ بدايتها، حتى شهد نهايتها نتيجة خمس مناورات ذات طبيعة اســتراتيجية وعملياتية، أثبت فيها أن جيشًا عربيًّا بإمكانه أن يبلغ أعلى الدرجات في التدريب والأداء القتالي إذا تمكّن القائمون عليه، قادة وهيئات ركن، مــن التدقيق في انتخــاب أولوياتهم في التسليح والتدريب والإعداد القتالي.

لم تكن الحرب العراقية - الإيرانية حربًا عبثية، بل حربًا دافع العراقيون فيها عن حدود بلدهم وذادوا عن حياض وطنهم وأمتهم بدمائهــم ومالهــم وعرقهم. قاتلــوا للحفاظ على قيمهــم وأمنهم القومي وشخصية بلدهم المميّزة الضاربة في أعماق التاريخ كمهدٍ للحضارة الإنسانية. لم يكن العراقيون عدوانيين أو معتدين في هذه الحرب، بل صدّوا العدوان الذي بدأ في الرابع من أيلول/ ســبتمبر 1980 بمناوشاتٍ حدودية تصاعدت شيئًا فشيئًا، واستُخدمت فيها

الأسلحة كافة. من هنا فإن ما ســتضيفه مذكرات الفريق الخزرجيّ سيســهم بالتأكيد في إجلاء الحقائــق ووضع الأمور فــي نصابها الحقيقي.

كان لي الشــرف فعلًا أن يعهد إليّ «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياســات» ممثلًا بمديره العام عزمي بشارة أن أعمل مع مؤلف المذكرات، وهو الشــخص الذي أكنُّ له كثيرًا من الاحترام والالتزام لأنني عملت بإمرته طوال تسـنّمه منصــب رئيس أركان الجيش، فكنت مستشــاره البحري، ثم مستشــاره لشــؤون البحث والتطوير. لم تكن معرفتي بالفريق الأول الركن نزار الخزرجيّ بنت يومها، أي أيــام عملي تحت قيادته فــي الأركان العامة، بل تذهب بعيدًا إلى أيــام كنت مبتعثًا إلى الهند للدراســة فــي منتصف عقد السبعينيات، وكان يعمل ملحقًا عسكريًا للعراق في الهند، عرفته منذ ذلك الحين ضابطًا يتميز عن الآخرين كثيرًا.

ســيجد القارئ ســردًا أمينًا غاية في الموضوعية لمراحل هذه الحرب الضروس، ومحطــاتٍ مهمةً ينظر فيهــا الفريق الخزرجيّ بعينٍ ناقدة وفكرٍ موضوعيٍّ إلى أداء القوات المسلحة العراقية، ليس في مراحل الإخفاق فحسب، بل في مراحل الانتصار والتألق أيضًا. ولعل في هذا مــا يزيد من درجة الثقة بمــا أورده كاتب المذكرات عما تضمنته مراحل الحرب العراقيــة - الإيرانية من حوادث. كان موضوعيًا جــدًا وهو يناقش قضية الأســلحة الكيماويــة وضرب حلبجة المزعوم، إذ بيَّن بتجرد روايته الشخصية منذ أبلغته هيئة ركن القيادة العامة بأن مراقبة الشــبكات الإيرانية تنبئ بأن شيئًا ما يجري

في جبهة حلبجة، ومتابعته مع مختلف القوات والأسلحة لكلٍّ ما يجري.

صمَّمت وأنا أعمل على مشروع المذكرات أن أكتب بشكلٍ جانبي عما أحاط بها من وجهات نظر الكتّاب والخبراء والمحلّلين الغربيين، ووددتُ أن يكون ما أكتبه تقديمًا لكتاب المذكرات، لكن حصيلة عملي كانت كبيرةً جدًا بمقياس المقدمات، لذلك آثر «المركز العربي» مشكورًا نشرها ككتابٍ مستقلٍ يصدر بموازاة المذكرات.

في الختام أودُّ الإشارة إلى أن هذا المشروع لم يكن ليشهد النور في هذه الأحوال الملتبسة لولا الدعم الكريم الذي قدمه «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» الذي أتشرف بالانتماء إليه، ولولا التشجيع الأخوي من مديره العام عزمي بشارة.

الفصل الأول

المدخل

لم يكن ما جرى في الفترة بين 4 أيلول/ سبتمبر 1980 والثامن من آب/ أغسطس 1988 حربًا عبثية، ولا عملًا عدوانيًا ماثلًا مهما قيل عنه من مختلف الجهات التي تعاملت مع هذه الحرب. كما أن هذه الحرب لم تندلع نتيجة نزاع حدودي على مخفرٍ فحسب، أو على مركز حدودي هنا أو هناك على طول هذه الحدود الطويلة والمعقدة التي تفصل بين بلدين اتسمت العلاقة بينهما بالشد والجذب منذ خمسمئة عام على الأقل. وكانت هذه الحرب بحق أطول حروب القرن العشرين خاضها جيشان ينتميان إلى دولتين مكتملتي السيادة، استخدما فيها آخر ما أُتيح لهما من تقانة عسكرية وجدت طريقها إليهما عبر التوريد الرسمي التعاقدي المعروف، أو ما أتاحته السوق السوداء عبر وسطاء وتجار السلاح، أو عبر عمليات سرية خاصة كما في حالة «إيران غيت» حيث جهّزت الولايات المتحدة إيران بأسلحة وأعتدة وقطع غيار عبر عملية تحولت إلى فضيحة ما سُمّي بـ «إيران كونترا». ولم تكن إسرائيل بعيدة عن هذه العملية، أو عمليات أخرى لم تُفضح[1].

---

(1) صدر عن مجلس الأمن القومي الأميركي ملف غطى قضية أولي نورث، انظر:
National Security Archive, «The Oliver North File: His Diaries, E-Mail, and Memos on the Kerry Report, Contras and Drugs,» (National Security Archive Electronic Briefing =

تنــاول موضــوع الحــرب العراقيــة - الإيرانيــة العديد من الباحثيــن، غربييــن وعربًــا وإيرانيين وهنــودًا وغيرهــم، تنوّعت دوافعهم واجتهاداتهم بتنوع قناعاتهم التي شكلها انحيازهم الفكري والعقيدي. فالطرفان نظــرا إلى هذه الحــرب باعتبارها عدوانًا قام به الطرف الآخــر، واختلفا لذلك في تعيين يــوم بدايتها، حيث عدّ العراق يوم الرابع من أيلول/ سبتمبر 1980 هو اليوم الذي اندلعت فيه الحرب اســتنادًا إلى القصف المدفعي العنيــف الذي قامت به إيران على المدن الحدودية العراقية في القطاع الأوسط من الحدود عند المنفــذ الحدودي البري الرئيس في خانقيــن. وبيّن العراق أن إيران قامت بهذا العدوان انطلاقًا من أراضٍ اعترفت اتفاقية 1975 بعائديتها إلى العراق وتلكأت حكومة الشــاه بتســليمها إلى العراق بســبب الظروف المحلية القلقة كما ادعت. بالمقابل قامت القوات العراقية بسلســلة عمليات حدودية محدودة لإعــادة هذه الأراضي إلى العراق، ونجحت في ذلك. صعّدت إيــران في هذه الفترة من تعرضّها للعراق بزج القوات الجوية الإيرانية، وأسقط العراق طائرة فانتوم إيرانية وأســر قائدها حيًا. ويُعد هذا أكبــر دليل لدى العراق على أن إيران هي البادئة بالحرب.

قام العراق بعد تفاقم الأزمة بهجوم واسع هدفَ إلى إجهاض أي هجمات إيرانية واســعة بالقــوات البرية ولانتــزاع المبادأة من الطرف المقابل. وحــدث هذا التعرض الإجهاضــي بعد ظهر يوم

Book; no. 113, 26 February 2006), on the Web: <http://www2.gwu.edu/~nsarchiv/index.html>. =

22 أيلول / سـبتمبر 1980 الذي تعتبره إيران يوم اندلاع الحرب بـ «العدوان العراقي» ضدها.

من بين هذه الأمور المتشابكة سنحاول التعامل مع قضية هذه الحرب باعتبارها أمرًا عاشـه البلدان الجاران، وأخـذ مدىً زمنيًا طويلًا ليصل إلى نهايته بعد أن استعاد العراق المبادأة، ونفّذ عملياته الكبرى الخمس التي حسمت نتيجة هذه الحرب.

من هنا قمنا بدراسة أكثر ما كتب عنها من مصادرها المختلفة، وتعاملنا معها تعاملًا حياديًا ما اسـتطعنا ذلك، ملتزمين الموضوعية المطلوبة من المؤرخ والمحلل.

لهذا تناولت في هذا الكتاب ما نمـى إلى علمي من تطورات طوال هذه المدة التي استمرت فيها الحرب نتيجة اشتغالي في أعلى أركان هيئة قيادية في القوات المسـلحة العراقية، توصلت بسـببها إلى تصويبات بعض ما ذهب إليـه الباحثون من عرب وأجانب مما تقتضيه الأمانة العلمية وأمانة المؤرخ.

عرض المصادر

كُتب الكثير عن هـذه الحرب بأقلام كتّـاب غربيين بالدرجة الأولـى، لأنها تميزت باندلاعها بين بلديـن جارين على درجة من غنى الموارد تتيح لهما الاستمرار في القتال إلى أن يُنهكا معًا. كما يُظنُّ أن أحد أهداف الدفع غير المباشر إلى هذه الحرب من جانب دوائر غربية هو أنها لا ترغب في أن ترى بعد الشاه في هذا الإقليم

الحيوي قوة يُعتدُّ بها، يمكن أن تشــكِّل تهديدًا لمصالحها، أو لبقاء «إسرائيل» وأمنها.

من هنا، كانت مصلحتها حقيقية فــي إطالة زمن هذه الحرب على غير مــا ظنّ العراقيون على الأقل. وفــي عرضنا ما كُتب عنها يُمكننا الإشارة إلى نماذج أتيح لنا الاطلاع عليها، أو إلى خلاصاتها أو عروضها. أصــدرت دار روتلــدج (Rutledge) كتابًا بعنوان **أطول الحروب: الصراع العســكري العراقي - الإيراني 1980 - 1988**، كتب فيه ديليب هيرو (Dilip Hiro) فصلًا بعنوان «جذور الصراع: بعد الثورة الإيرانية»، تناول فيه الجذور التي أدّت إلى هذا الصراع والتي سنمرُّ عليها في هذا التقديم.

نرى مــن الأوراق البحثية المهمة أن مســاهمات ديليب هيرو في الكتابة مبكرًا عن الحــرب العراقية - الإيرانية بمختلف جوانبها شــكلت معينًا جيدًا للباحثين، حيث اســترعت اهتمامنا دراســته الجيدة «مســرد الحرب العراقية - الإيرانية»[2] (Chronicles of Gulf War). ومن كتاباته أيضًا دراسته المهمة: «جذور الصراع: بعد الثورة الإيرانيــة» (The Roots of Conflict: After The Iranian Revolution) المنشــورة في كتاب **أطول حــرب: الصراع العســكري العراقي - الإيراني** (*The Longest War: Iran-Iraq Military Conflict*)[3]، الذي يُعتبر مرجعًا مهمًّا في هذا المجال.

---

(2) *Western Political Quarterly*, vol. 41, no. 4 (December 1988), pp. 689-723, and «The Strange War in the Gulf,» *Merip Reports*, nos. 125-126 (July - September 1984), pp. 3-14.

(3) Dilip Hiro, *The Longest War: The Iran-Iraq Military Conflict* (New York: Routledge, 1991).

وكتب إفرايم كارش أكثر من عمل عن هذه الحرب، لعل منها الفصل الخاص بقرار الحرب في كتابه المشترك مع إيناري راوتسي (Inari Rautsi) صدام حسين: سيرة سياسية[4]، وأتيح لنا الاطلاع على هذا الفصل. وكتب كارش أيضًا: الدروس العسكرية المستنبطة من الحـــرب العراقية - الإيرانية[5]. فيما كتب ســتيفن بليتيير فصلًا عن قرار العراق الذهاب إلى الحرب في الحـــرب العراقية - الإيرانية: فوضى في الفراغ[6]، وأتيح لنا الاطلاع على هذا الفصل والاستفادة من تحليلاته. وكتب بليتيـــر أيضًا مع آخرين كتابًا أصدرته مشـــاة البحريـــة الأميركية لتحليل القدرات العراقية عشـــية عملية «عاصفة الصحراء» بعنوان دروس مســـتفادة: الحرب العراقية - الإيرانية[7]. وكتـــب فيليب روبنـــز فصلًا بعنـــوان «العراق في حـــرب الخليج: الأهداف والاستراتيجيات والمعضلات» في كتاب حرب الخليج: الأبعاد الإقليمية والدولية[8].

كذلك كتب المشـــير محمد عبد الحليم أبو غزالـــة كتابًا عن هذه الحرب، يبدو من خلال المخططات الملحقة به أنه استند إلى

---

(4) Efraim Karsh and Inari Rautsi, *Saddam Hussein: A Political Biography* (London: Brassey's, 1991).

(5) Efraim Karsh, «Military Lessons of the Iran-Iraq War,» *Orbis* (Spring 1989).

(6) Stephen C. Pelletiere, *The Iran-Iraq War: Chaos in a Vacuum* (New York: Praeger, 1992).

(7) Stephen C. Pelletiere and Douglas V. Johnson, *Lessons Learned: The Iran-Iraq War* (Carlisle Barracks, Pa.: Strategic Studies Institute, U.S. Army War College, 1991), vol. 1.

(8) Hanns W. Maull and Otto Pick, eds., *The Gulf War: Regional and International Dimensions* (New York: St. Martin's Press, 1992).

تحليل دائرة العمليات المصرية للحرب العراقية - الإيرانية، وأشرنا إليه ونقدنا بعض جوانبه[9]. وكتب ج. حسين راضي من جامعة هيوستون ورقة بحثية بعنوان «نموذج بديل من عقلانية الدولة في السياسة الخارجية: الحرب العراقية - الإيرانية»[10]، اطّلعنا على وجهة نظر الباحث في عقلانية اتخاذ قرار الحرب على مستوى الدولة باعتبار هذه الحرب مثلًا.

كتب ديفيد سيغال (David Segal) دراسة بعنوان «الحرب العراقية - الإيرانية: تحليل عسكري»[11] (The Iran-Iraq War: A Military Analysis). واستفدنا من توجّهاته التحليلية التي تمثّل وجهة نظر غربية إلى هذا الصراع.

من المصادر المهمة أيضًا في هذا المجال الكتاب الذي أصدره مركز الدراسات الدولية والاستراتيجية في واشنطن (CSIS) لأنتوني كوردسمان وأبراهام واغنر بعنوان دروس الحرب الحديثة: الحرب العراقية - الإيرانية[12] (*Lessons of Modern War: The Iran - Iraq War*)، وترجم إلى العربية بنسخ محدودة التوزيع وقامت بالترجمة كلية القيادة والأركان الإماراتية. تخصص الجزء الثاني

---

(9) تم الحصول على النسخة التي لدينا من موقع مكتبة الإسكندرية الإلكتروني: <http://www.bib-alex.com>.

(10) G. Hossein Razi, «An Alternative Paradigm to State Rationality in Foreign Policy: The Iran-Iraq War,» *Western Political Quarterly*, vol. 41, no. 4 (December 1988).

(11) David Segal, «The Iran-Iraq War: A Military Analysis,» *Foreign Affairs*, vol. 66, no 5 (Summer 1988), pp. 946-963.

(12) Anthony H. Cordesman and Abraham R. Wagner, *The Lessons of Modern War*, 4 vols. (Boulder, Colo.: Westview Press; London: Mansell Pub., 1990-1996), vol. 2: *The Iran-Iraq War*.

منه بالحرب العراقية - الإيرانيـــة بصفحاتها وتطوراتها وتداعياتها كلها. واعتمدنا على تحليلاته بعين ناقدة في إدراك التفسير الغربي لهذه الحـــرب. كتب الرائد و. جـــاك ديـــز (W. Jack Dees)، الرائد في الجيش الأميركي، رســـالة بحثية إلى كلية الحرب البحرية في نيوبورت بعنوان «فاعلية العراق العســـكرية فـــي حربه مع إيران» (The Iraqi Military Effectiveness in the War with Iran)، اختبـــر فيها كفاءة المؤسسة العســـكرية العراقية بقيادتها وهيئة أركانها وقواتها المقاتلـــة في تعاملها مـــع مختلف أوجه المواجهـــة، ومدى تطور أدائها طـــوال الحرب. واعتمدنا مـــا جاء بها من تقويـــم عام بعد إخضاعه للمناقشة.

لديليب هيرو أيضًـــا كتاب مهم بعنوان إيـــران في حكم آيات الله[13] (Iran Under Ayatollahs)، اطلعنا على مقتبســـات منه ومراجعة جيـــدة لغُلشـــان ديتـــل (Gulshan Dietl) بعنوان «زهـــور الخميني»، واستفدنا من تحليلاته عن دور المؤسســـة الدينية غير المنقطع في الحياة الإيرانية.

له أيضًا كتـــاب بعنوان **جيران لا أصدقاء: العـــراق وإيران بعد حربي الخليـــج** (*Neighbors Not Friends: Iraq and Iran after the Gulf Wars*) كتبه في وقت متأخر بعد حرب العراق وإيران، وحرب إخراج العراق من الكويت، والقناعة المستقاة من هذا الكتاب هي استمرار حالة الصراع والنزاع بين البلدين، والأهم هو اقتناعه باستمرار دور

(13) Dilip Hiro, *Iran under the Ayatollahs* (London; New York: Routledge and Kegan Paul, 1985).

رجال الدين الإيرانيين في الحياة الإيرانية بجوانبها كافة مهما حصل في إيران من تغيير داخلي. والكتاب على الرغم من غِناه بالتفاصيل يفتقر إلى التحليل المعمق والحيدة المعرفية بين الطرفين، لأنه يظهر تماهيًا بوجهات النظر الإيرانية في بعض الأحيان.

لمجيد خدوري كتاب مهم بعنوان **حرب الخليج: الخلفيات والآثار**[14] (*The Gulf War: The Origins and Implications*) ألقى فيه الضوء على قضية شطّ العرب والحدود البرية في دراسة تاريخية توثيقية مفصلة، وأفادنا الاطلاع عليها في ترصين معرفتنا بهذا الصدد.

كذلك قدّم ويل د. سويرنغن (Will D. Swearingen) دراسة مهمة بعنوان «الخلفيات الجيوسياسية للحرب العراقية - الإيرانية»[15] (Geopolitical Origins of the Iran-Iraq War)، تناولت البعد الجيوسياسي للصراع.

أما كاتب هذه السطور فله كتاب صدر عن مركز دراسات الوحدة العربية بعنوان **احتلال ما بعد الاستقلال - التداعيات الاستراتيجية للحرب الأمريكية على العراق**، تناول فيه الحرب العراقية - الإيرانية ومراحلها وأسبابها. وترجمنا أيضًا كتابين مهمين لأطروحتي دكتوراه قدّمهما باحثان إيرانيان لنيل شهادة

---

(14) Majid Khadduri, *The Gulf War: The Origins and Implications of the Iraq-Iran Conflict* (New York: Oxford University Press, 1988).

(15) Will D. Swearingen, «Geopolitical Origins of the Iran-Iraq War,» *Geographical Review*, vol. 78, no. 4 (October 1988), pp. 405-416.

الدكتوراه من جامعتين أميركيتين: سوسيولوجيا المسجد الشيعيّ في الثورة الإيرانية لسيروس وكيل الزاد (جامعة بوسطن، 1987)، وتحليل اجتماعي للثورة الإيرانية لمنصور معدل (جامعة وسكنسن، 1987). وللفريق الركن رعد الحمداني كتاب بعنوان قبل أن يغادرنا التاريخ وصف فيه من بين أمور أخرى تجربته خلال الحرب العراقية - الإيرانية من مواقعه القيادية بصفته آمر كتيبة وآمر لواء في الحرس الجمهوري.

أولًا: من هو الفريق الأول الركن نزار عبد الكريم فيصل الخزرجيّ؟

إن صاحب كتاب الحرب العراقية - الإيرانية 1980 - 1988، مذكرات مقاتل الذي نحن بصدد قراءته وتحليله في دراسة تحليلية مقارنة هو بطل حقيقي من أبطال الأمة، وقائد عسكريٍ فذ امتلك حرَفية فن الحرب والعلم العسكري بأعلى مستوياته. وتمكّن بمعونة هيئة ركن كفيّة ومنتقاة من حسم هذه الحرب التي أراد أعداء العراق والأمة العربية أن تطول لتنهك البلدين المتصارعين كي تبقى في هذه المنطقة من العالم قوة واحدة ووحيدة هي الكيان الصهيوني.

عاش الفريق الخزرجيّ تجربة الحرب العراقية - الإيرانية المريرة منذ بدايتها، وكان قائدًا لفرقة المشاة السابعة (فرقة جبلية) التي كانت متمركزة في قاطع السليمانية قبل الحرب، وكُلِّفت بواجبات الأمن الداخلي. وتمت إعادة توجيهها والمناورة بها إلى قاطع الفيلق الثاني شرق بغداد، وتولّت مهمة قاطع كيلان غرب

في هذا القاطع منذ أوائل أيام الحـــرب. ومنذ اندلاع الحرب حتى قيامه بكتابة الفصل الأخير منها مع ضباط القوات المسلحة العراقية وجنودها كان متعايشًا معها بإنجازاتها وإخفاقاتها.

لاحظ الفريق الخزرجيّ، وفي وقت مبكر النفق المظلم الذي أُعدّ لينزلق فيه العراق ويتورّط بحرب اســتنزاف طويلة تدفع باتجاه هدفين:

- تحييد قدرة العــراق الفائقــة باعتبارها عاملًا حاســمًا في المواجهة مع العدو الإسرائيلي.

- ترك الحرب لتأخذ ضريبتها الباهظة من البلدين المتحاربين اللذيــن كان احتواؤهما وإنهاكهما هدفًا، يصـــبُّ في مصلحة ذلك الكيان العدواني.

عاش الخزرجيّ هـــذه المعاناة وهو يشـــهد العديد من زملائه وأحبائه وتلامذته من الضباط تُســفك دماؤهـــم دفاعًا عن وطنهم، الأمر الذي جعل من استشهادهم خســارة نوعيّة لجيش عُرفت عنه حرَفيته العالية، فظل يفكر ويتحسّـــب في محاولة منه لإيجاد إجابة عن الكيفية التي تحســـم بها هذه الحـــرب لمصلحة العراق، بحيث يخرج منهــا منتصرًا، محققًــا ردعًا واضحًا لأعدائــه، يمنعهم عن التعرض لأمنه في المستقبل.

أشـــرت في تقديمي المذكرات إلى محطات مهمة ســاهمت في صوغ شـــخصيته العســكرية، منها انحداره من عائلة عسكرية تمثلت في كلٍّ من أبيه العميـــد عبد الكريم فيصل الخزرجي الذي

يعود إليه الفضل في غرس الشــخصية العســكرية في نفس ولده البكر نــزار، ثم عمّه اللواء الركن إبراهيــم فيصل الأنصاري الذي يعود إليــه الفضل في تربيته العســكرية وصقل شــخصيته وإبراز صفاته وخصائصه القيادية عندما عمل تحت قيادته المباشرة حين كان الأنصــاري قائد الفرقــة الثانية، فرقة العراق الجبلية الباســلة المتمرســة في الحرب والقتال. ولكونه ضابطًا من أوائل الضباط البعثيين في الجيش العراقــي، فإنه عاش مرحلة معاناة أليمة عندما قرّر البعث سـجن اللواء الركن الأنصاري رئيــس أركان الجيش، ولولا أن قيّض له تأدية دور مهم فــي التبصير بخصائصه الحقيقية والجور الذي لحــق به، عندما أتيحت له فرصــة لقاء نائب رئيس مجلس قيادة الثورة في حينه، لربما كان القدر قد ســلك مســلكًا آخر مع الأنصاري.

تركت حادثة الأنصاري جرحًا عميقًا عاناه وآلى على نفسه ألّا يجعل الشــأن الحزبي يطغى على مهمته الأولى في الحياة، أي أنه ضابط في القوات المسلحة العراقية.

ثانيًا: هل كانت هذه الحرب لازمة؟

اتســمت هذه الحرب بأن الطرفين قاما بها بشــكل مختلف، فمن اختيار الاحتكاك الحدودي ومحاولة إذكاء الانقســام الطائفي في العراق وسيلةً للصراع من الجانب الإيراني المعروف عنه طول الأناة والنفس الطويل والحصول علــى المغانم بتراكم الإنجازات الصغيرة، إلى أخذ المبــادأة (Initiative) والاحتفاظ بها من الجانب

العراقي باعتبارها الوسـيلة الأسـرع والأنجع للوصول إلى الهدف وتحقيقه، وهذا إنجـاز قاد في ما بعد إلى نجـاح عمليات التحرير الكبرى الخمس التي رسمت نهاية هذ الحرب التي طالت أكثر مما يجب نتيجة إصرار كلٍّ مـن القيادة الإيرانية من جهة، وقوى عالمية في مقدّمها الولايات المتحدة الأميركية على إطالة أمدها، لتحويلها بؤرةَ استنزافٍ خطرة لقوى أكبر بلدين إقليميين في المنطقة (العراق وإيران). وهنا لا بدّ من الإشـارة إلى سـوء تقديـرٍ لتداعيات هذه الحرب من جانب القيادة العراقية، ما ساهم في تحميل العراق دولةً وشـعبًا الكثير من الدماء والأوزار والأموال. وسنشـير لاحقًا إلى تخمينات عن الخسائر المادية والبشـرية التي تحمّلها الطرفان في هذه الحرب بحسب التقديرات الدولية المعتمدة.

كان أخـذُ العراق المبـادأة بعد أن حقّق مخادعـة ناجحة في بداية هـذه الحرب فـي 22 أيلول/ سـبتمبر 1980 إنجـازًا على صعيد التخطيط الاستراتيجي، لكنه فشل في الاحتفاظ بها إلا لفترة محدودة، وأجبر على التخلي عنها نتيجة سوء في التخطيط اللاحق، وعدم تفهم متطلّبات مرحلة استثمار النصر.

تتحمل القيادتان السياسـية والعسكرية في العراق المسؤولية عن عـدم الإحاطة ببعـض نواحي القصـور في إعـداد القوات المسـلحة عند التخطيط لهذه الحرب في المراحـل الأولى التي مهّدت لها، إذ تم على أسـاس الموقف آنذاك اتّخاذ القرار بتنفيذ الضربة الاسـتباقية (Preemptive Strike). وأشـار الفريق الخزرجي

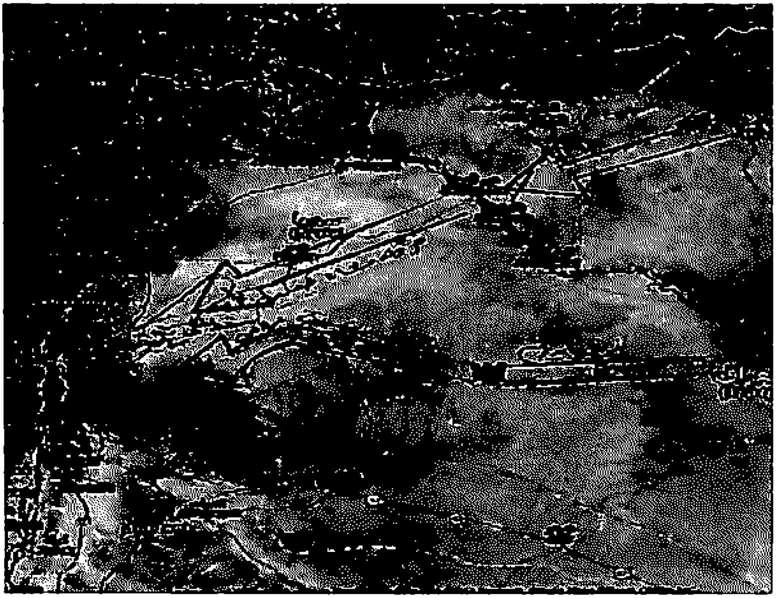
إلى ذلك صراحة، خلال المؤتمر الذي رئسه نائب القائد العام للقوات المسلحة وزير الدفاع الفريق الأول الركن عدنان خير الله، عندما استمع إلى إيجاز قائد الفيلق الأول وقادة فرقه (وهو منهم إذ كان قائدًا للفرقة السابعة)، فبيَّن الفريق الخزرجي في مداخلته أن زجّ القوات المسلحة في عملية واسعة النطاق من هذا النوع يستدعي إعادة تأهيل القوات المنهمكة بعمليات الأمن الداخلي في شمال القطر، ولمدة ليست بالقصيرة. لم تستقبل هيئة التخطيط في الأركان العامة ملحوظاته بارتياح. ولعلّ من الإنصاف بيان أن القوات المسلحة العراقية، بناءً على عقيدتها العسكرية لم تكن تُدرّب قواتها المسلحة بالنسبة إلى الحدود الشرقية إلا على العمليات الدفاعية. وسنجد في هذا الكتاب كيف أن محاور العمليات والطرق النافذة إليها لم تكن تعالج إلا من ناحية الدفاع فحسب في عملية التدريب والتهيئة التي تمارسها القطعات، وأن طرق المواصلات في هذه المحاور كانت تُدَرّس في كلٍّ من الكلية العسكرية وكليتي الأركان والحرب باعتبارها محاور تهديد محتمل يقتضي الدفاع عنها. فخط الحدود في العلاقات الدولية هو خطّ مقدس، لهذا تم تدريب القوات المسلحة على الرد دفاعيًا على كل من يحاول انتهاكه. وما كان هدف الاندفاعات العملياتية التي نفّذها الفيلقان الثاني والثالث في جبهة العمليات إلا الوصول إلى مناطق يمكن الدفاع عنها كما سنوضح ذلك في ما بعد. من هنا فإن الانتقال من الدفاع إلى التعرض، بل إلى الاستباق، وضع على كاهل هيئة التخطيط عبئًا ثقيلاً حاولت جهدها تحمُّله والخروج به بأفضل الحلول، ذلك

أن القيادة العسـكرية وهيئة ركنها المتمثِّلة بـالأركان العامة كانتا تحاولان أن تتماهيا بمـا ترمي القيادة السياسـية التوصل إليه من ضربتها الاستباقية، من دون أن تتم تهيئة متطلبات هذه العملية التي تُعدّ من العمليات العسـكرية المتقدمة وذات المتطلبات المعقدة المتداخلة توقيتاتها ومراحلها، ومـن جهة أخرى كان غياب النظر إلى العواقـب بتعمق، وعدم الخـوض في تفصيـلات تداعيات الضربة، ومترتبات الدخول إلـى أراضي الآخرين، والاكتفاء على ما يبدو بالتحول إلى الدفاع وترصيـن المواضع الدفاعية، وهو ما تدرّبت عليه القوات المسـلحة طوال تاريخها، كان هذا كله بأمل الانتظار حتى تسـتجيب القيادة الإيرانية لحجـم التحدي العراقي الماثل، لتتحول العملية بذلك إلى الخيار التفاوضي الذي سـيضع حدًا للحرب.

صحيـح أن القوات المسـلحة العراقية تدرّبـت في مراحل مهمة من عقد السـبعينيات على عقائد قتالية جديدة في استخدام القوات، خصوصًا على الدفاع السـيار، وأُدخلـت عقيدة جحفل المعركة (Battle Group Doctrine)، وتدرّبـت عليها قواتها المدرعة والآلية والأسـلحة المتجحفلة معها ونفّذتهـا، لكن ذلك لا ينفي أن أسـاس عقيدة القتال للجيش العراقـي كان الدفاع حيال عدو متعرض علينا. حتى الواجب القومي الـذي كانت قطعات الفيلق الثاني المدرع تـدرب عليـه، كان يقصر مهمتها علـى التدخل لدعم وإسـناد القوات العربية (الأردنية بشكل خاص عند تعرض العدو الصهيوني لها)، وكان ما قامت به القوات العراقية في حرب

تشـــرين 1973 على الجبهة الســـورية خارقًا لمقاييس اســـتخدام القوات المســـلحة بالأبعـــاد كلها، وحقّـــق مباغتةً كبيـــرة للعدو الصهيوني. فالتنقل على سرف (جنازير) الدبابات إلى مسافة تكاد تزيد على 1000 كلم ليس بالأمر الهَيِّن ولا القياســـي (المألوف)، ولا يتطابق مع أســـس الاســـتخدام التعبـــوي (التكتيكي) للقوات المدرعة، لكن اضطرار القوات المدرعـــة العراقية إلى التنقل بهذا الشـــكل كي تُزَج في معركة الجولان وبسرعة، بعد أن نجح العدو الإســـرائيلي في خرق الدفاعات الســـورية والتقدّم صوب دمشق، جعَلَ من اللجوء إلى هذا الخيار أمرًا مطلوبًـــا مهما كانت النتائج التي ســـيخلّفها على الوضع الفنـــي والكفاية القتاليـــة للعجلات المدرعة من دبابات وناقلات أشـــخاص مدرعـــة وعجلات قتال مدرعة، الأمر الذي ســـتتم دراســـته وتحليله وتداركه بعد انقشاع دخان المعارك. لذلك أجهض وصول القوات المســـلحة العراقية المدرعة والجبلية واشـــتباكها مع العدو بوقت قياســـي مخططاته. ولولا السياســـة التي وضعت حدًا لاشـــتراك القوات العراقية في معركة الجولان بســـبب قبول القيادة الســـورية قرار وقف إطلاق النار من دون التشاور مع القيادة العراقية، لكانت مخرجات حرب تشرين على الجبهة الشـــمالية من هذه الحرب شـــيئًا آخر مختلفًا تمامًـــا. تُبيّن لنـــا الخريطة المبيَّنة أدناه شـــكل المناورة الواســـعة التي تحركت عليها القوات المســـلحة العراقيـــة لتصل إلى جبهة المواجهـــة في الحـــرب العربية - الإســـرائيلية الرابعـــة في جبهة الجولان.

الخريطة (1-1)
مناورة القوات العراقية للوصول إلى جبهة الجولان



من جانـــب آخر كانـــت القيادة السياســـية المتمثّلـــة بالرئيس ومجلس قيادة الثورة والقيادة القطرية للحزب الحاكم قد أيقنت أن هذه الحرب لن تكون حربًا طويلة لنشـــوء قناعات سياسية ترسخت لديهـــا قرنت الموقـــف الدولي حيـــال الوضع بين العـــراق وإيران بالموقف الدولي حيال الوضع في الصراع العربي - الإسرائيلي، أي إن العالم كان يتدخل لفرض وقف إطـــلاق النار عبر قرار ملزم من مجلس الأمن خلال مدة لا تتجاوز الخمســـة عشر يومًا من اشتعال شـــرارة الحرب بعد التأكد من تحقيق الكيان الصهيوني أهدافه. في هذا الصراع الذي نحن بصدد تحليلـــه حصل تحرك دولي، وأُصدر

قرار عن مجلس الأمن رقمــه 479/ 1980، لكن من دون تدعيمه بإرادة سياســية تفرض وقف إطلاق النـــار. صحيح أن فرض وقف إطلاق النار في الحروب العربية - الإسرائيلية كان يتم دائمًا بعد أن تحقق إســرائيل أهدافها، لكن الدول العربية كانت تقتنع بأن قبولها وقف إطلاق النار هو الخيار الأفضـــل لديها بعد اندحار قواتها أمام العدو، لأن الطرف الخاسر وفق هذه المعادلة يسعى عادة إلى طلب وقف النار والقبول به فور إعلانه[16].

كان تقدير القيادة السياســية العراقية أن إيران ستكون الخاسرة في هذه المواجهة بعد الضربة الاســتباقية التي تشبه ضربة الخامس من حزيران/ يونيو الإسرائيلية من بعض الوجوه (ضربة جوية مركزة أعقبها اندفاع مدرّع عزوم للوصول إلى أهداف ذات قيمة استراتيجية خطرة تنقل المعركة إلى أرض العدو). كانت هذه هي أركان نظرية الأمن الإسرائيلية، ولذلك قدَّرت القيادة العراقية أن هذا ما سيحصل بالضبط بعـــد الاندفاعة الأولى، والتوقف على أهداف اســتراتيجية خطرة وفي وضع يُمكِّـــن العراق من الدفاع، لكن مـــا فات القيادة العراقية ههنا هو عدم وجود تحليل نفسي للقيادة الإيرانية، أي قيادة الخميني التي تملك كمًا هائلًا من تزاوج التراكمات النفسية السلبية والدوغمائية المذهبية.

(16) نص القـــرار 479/ 1980 على أن يمتنع البلدان عن اســتخدام القوة، وأن يحـــلا خلافاتهما بالطرائق الســـلمية، وأن يســـعيا إلى طلب وســـاطة المنظمات الدولية والدول لحـــل خلافاتهما، وأن تمتنع الدول عن إمداد البلدين بما يســـاعد في اســـتمرار النزاع، وأن يتولى الأمين العام مســـؤولية متابعة الحالـــة وإبلاغ مجلس الأمن خلال 48 ســـاعة بما ســـيؤول إليه الوضع. انظر نص القرار على موقع الأمم المتحدة الإلكتروني: <http/www.un.org>.

كان يمكــن أن تقبل قيادة إيرانية مدنيــة بوقف إطلاق النار لو كانت موجودة وأن تركن إلى التفاوض لحلّ الإشكال، كما يحدث عادة بين الدول المتحاربة، بســبب الخلل البارز الذي كانت تعانيه قواتها بعــد الثورة. وهي حالة قدَّرت القيــادة العراقية على ما يبدو أنها ستكون السبب الرئيس في تحقيق نصر عراقي سريع يضع أمام القيادة الإيرانية خيارًا واحدًا فحســب، هو خيار الركون إلى السلم والدخول في مفاوضات لحلّ الإشــكالات الحدودية والسياســية والدعوية بين الطرفين.

إن دراســة النزاعات العالمية الســابقة وتحليلها بعمق وأخذ الدروس المســتنبطة منها كانت ســتدلل أنه ليــس نجاح التعرض العسكري بالقوات المســلحة فحسب هو ما سيؤشــر إلى عوامل النجاح، فالاندفاع الألماني العزوم تجاه بولندا والســويد واحتلال النمســا، واقتحام الدفاعات البلجيكية الفرنســية على خطّ ماجينو، والاندفاع إلى احتلال بلجيكا وفرنسا بعد ذلك، لم تحقّق الوصول إلى أهداف المخطّــط الألماني من هذه الحرب التي كان يروم منها التسيّد على أوروبا باعتباره قوة وحيدة، كما لم تُسعف الألمان كل عملياتهم التعرضيّة واسعة النطاق التي تمتعت القوات الألمانيّة فيها بالحصافة المعروفة عن هيئة الركن الألمانية، مثل الاندفاع والدفاع على خطّ ستالينغراد - موســكو - لينينغراد (سان بطرسبرغ)، ولا احتلال النرويج، أو الإنزال في كريت جوًا، ولا مطاردة البريطانيين في معارك شمال أفريقيا حتى العلمين على مشارف الإسكندرية. لم تكتب هذه العمليات العزومة كلها نهاية الحرب بل وسَّعت نطاقها، وأدخلت مقاتليــن جددًا في الحــرب بإعلان الولايــات المتحدة

الحرب علـــى ألمانيا واليابـــان. واليابان هي الأخرى مثلٌ ســـاطع على أن الانتصار العســـكري ليس وحده الذي يرسم نهاية الحرب، إذ تمكّنت اليابان عمليًا من الســـيطرة على مسرح عمليات المحيط الهادئ (الباســـفيك) ودمرت زهرة القوات البحريـــة الأميركية في معركة بيرل هاربر الشهيرة، ثم احتلّت القلعة الإمبراطورية البريطانية في سنغافورة ووصلت عمليًا إلى حدود الهند.

هنالك شـــيء من التشـــابه بين ســـلوك هيئتي الركن العراقية والألمانية حيال قيادتيهما السياســـيتين عند تخطيطهما للحرب في هاتين الحالتين، وهو أن مـــن قرر التعرض هي القيادة السياســـية، وهذا من صلـــب صلاحيتها، لكن كان يجـــب أن تُناقش رؤية هذه القيادة للتأكد هل يمكـــن تحقيق هدف الحرب بالإمكانات المتاحة أم لا، وهو أمر نرى أن هيئة الركن العراقية لم تقم به كما يجب، إذ لم تكن مشـــورتها على ما يبدو عاكسةً الوضع الحقيقي لمخرجات حرب مع جار، كان علـــى الرغم من ضعفه يتمتـــع ببعض عناصر القوة التي ما زال يحتفظ بها بعد إضعاف القوات المسلحة الإيرانية، وتصفية قياداتها بعد الثورة[17].

ينبغي ألا ننســـى أن إيران تتمتع بفائقية تـــكاد تصل إلى 1:3 في كل من المســـاحة وعدد الســـكان، وأن مراكز التمركز السكاني

(17) للاطلاع على أداء هيئة الركن الألمانية، انظر: David J. A. Stone, *Twilight of the Gods: The Decline and Fall of the German General Staff in World War II* (London: Conway, 2011); Larry H. Addington, *The Blitzkrieg Era and the German General Staff, 1865-1941* (New Brunswick, NJ: Rutgers University Press, [1971]), and Walter Goerlitz, *History of the German General Staff, 1657-1945*, Translated by Brian Battershaw; Introduction by Walter Millis (Boulder, Colo.: Westview Press, 1985).

الإيرانيــة بعيدة عن الحــدود الدولية مع العراق بعــدًا بيّنًا، ففي ما عدا عبادان والمحمرة، تتواجد المــدن الأخرى الكبرى في العمق الإيراني على أبعادٍ أقلّها 180 كلم تقريبًــا. في حين أن كل المدن العراقية الرئيسة تقع على بعد بســيط عن الحدود الدولية، فالبصرة ثاني أهم مدينــة عراقية تكاد تحاذي الحــدود، ولا تبعد بغداد عن الحدود إلا مئــة كيلومتر أو ما يزيــد قليلًا على الطريــق (ثمانون كيلومترًا كمســافة شــعاعية جوية)، ويصدق هذا على الســليمانية وكركوك حتى الموصل. هــذه حقيقة كان يجب أن يتم حســابها، وظلّت المدن العراقية المهمة، البصرة منها تحديدًا، تحت القصف المدفعي الإيراني طوال مدة الحرب، ولم تُعاقَب المدن الإيرانية إلا بعد اندلاع حــرب الصواريخ بين البلدين عندمــا بادرت إيران إلى ضرب مدن العمق العراقي، ومنها بغــداد بالصواريخ التي حصلت عليها من ليبيا أولًا، ثم من سورية وكوريا في ما بعد.

يعني كل ذلك أنه مهما كانت القدرة العسكرية القتالية المتاحة عظيمة، فإن هنالك عوامل مهمة أخــرى قد لا تكون ظاهرة للعيان يجب أخذها بالاعتبار. من هنــا توصف الحرب بأنها علم وفن في الوقت نفســه، هي علمٌ لأنها تخضع للقوانين العلمية في استخدام معداتها، وفن لأن مخرجاتها تعتمد كثيرًا على أدوات ووسائل فعل هيئات التخطيط فيها، وشخصيّة قائدها ومهاراته القيادية التي سنجد في كاتــب المذكرات مثلًا بــارزًا عليها. ويدخل فــي هذا المجال دراســة عادات وردات فعل العدو، ومدى توقعها ورســم الخطط لمواجهتها، وكذلك دراســة الموازين الدوليــة، وأنماط العلاقات الدولية والإقليمية بالنسبة إلى طرفي الصراع، نحن والعدو، وكذلك

مدى تيسـر مصادر تجهيز السلاح وضمان أمن واسـتمرارية هذا الإمداد. وفي هذه الحرب سـنجد أمثلة واضحـة على كيفية لجوء البلديـن المتحاربين إلى طيف واسـع من الـدول الصناعية التي وجدت في تقاتلهما فرصة ثمينة، لتشغيل مصانعها واليد العاملة فيها على حسـاب الدماء التي سالت من الطرفين للوصول بالحرب إلى نهاية ترضي قياداتهما. وهذا موضوع واسـع يتطلب الكثير لدراسته وتحليله وسبر أغواره. ما فات القيادة العراقية هنا، وما سيفوتها في عملية مقبلة ستتخذ قرارها بعد عشـرة أعوام من اتّخاذها قرار الرد على العدوان الإيراني بالاستباق (إذ ستتخذ قرارًا آخر بتوجيه ضربة اسـتباقية من نوع آخر)، هو التحليل المعمـق للوضعين الإقليمي والدولي، وللوضع النفسـي والمعرفي للقيـادة الإيرانية، ولكيفية استنباط وسـائل وطرائق تهدف إلى التوصل إلى النتيجة ذاتها التي هدف إليها الاستباق، وهي قبر أحلام رجال الدين الإيرانيين بتصدير ثورتهم إلى العراق والخليج العربي لكن بوسائل أخرى.

فضلًا عـن الإيمان بقـدرة الاسـتباق بفرض أمـر يقود إلى التفاوض، يبـدو أن تصورًا ما كان يجول في ذهـن القيادة العراقية بأن العالم لن يصبر على تعرض نحـو 25 في المئة من الاحتياطي النفطـي العالمـي، أي حصة العـراق وإيران مجتمعتيـن، للخطر بسبب الحرب، وكذلك انقطاع ما ينتجه البلدان عن السوق النفطية العالمية لفترة أكثر من أسبوعين، متناسية أن لا العراق ولا إيران هما بمنظور إسرائيل بالنسبة إلى الغرب، ومتناسية أيضًا أن البلدين بعد شـنهما الحرب بعضهما على بعض، وبغض النظر عن الدوافع، قد قدّما نفسيهما في هذه الحرب كبشـي فداء لتحقيق الاحتواء الذي

سعت الولايات المتحدة إلى تحقيقه عليهما معًا[18]. وسيتم التوسع في معالجة هـــذه القناعة في ما ســـيأتي من تحليل هـــذه الحرب، لكن ما يمكـــن أن يقال في هذا المقام هـــو أن العراق بعد أن أدرك أن هنالـــك دفعًا إلى إطالة مـــدة هذه الحرب بما يتجـــاوز إمكاناته وبقاءه أيضًا بادر إلى الموافقة على أي جهد يســـعى إلى إنهاء هذه الحرب والتحول إلى التفاوض الســـلمي، لحل هذا النزاع المرير. وكان كلا الجانبين المتحاربين يتحدث عن دفاعه المســـتميت عن أرضه وقيمه، وهي حالة كان يجب أن تفســـح المجال للولوج إلى عملية ســـلمية تفاوضية تنهي الصراع، لو لم تتحكم بها «الغيبيات» وتراكمـــات الماضي التي تنظـــر إلى الآخر العراقـــي «بصفته كافرًا يجب قتاله»[19]. وتتكشف لنا هنا حقيقة أن الجانب الإيراني تشبث بالحرب وإطالتها حتى تدمير نظام الحكم العراقي واجتثاث شـــأفة رئيسه الذي تمت شيطنته [اعتباره شيطانًا] وتكفيره[20].

---

(18) انتشـــرت أقاويل كثيرة عن أن العراق خاض هذه الحرب نزولًا عند إرادات أجنبيـــة أغرته بها، وبهذا فإنه شـــنّها نيابة عن آخريـــن. الثابت للمراقبين الذين عايشـــوا الأحداث من داخل العراق أن هذه الادعاءات ليست صحيحة أبدًا، وأن قرار الحرب كان عراقيًا اتخذه الرئيس اســـتنادًا إلى قناعات ارتقت إلى حـــد أن الكيان الوطني العراقي قد أضحى مهددًا فعلًا بهجوم إيراني وشـــيك نتيجة ما تبثه الدعاية التي يشرف عليها رجال دين إيرانيون لا يعرفون منّ متطلبات العلاقات الدولية شـــيئًا، وأصمّوا آذانهم عن نصائح مخلصة قدمها دبلوماسيون وسياســـيون وطنيون، إلا أنهم لم يحظوا باحترام رجال الدين كونهم ليبراليين أو يســـاريين وطنيين، وكمثال على ذلك، انظـــر: Razi, «An Alternative Paradigm to State Rationality».

(19) انظـــر أيضـــاً: W. Jack Dees, *Iraqi Military Effectiveness in the War with Iran*, Middle East Special Studies, 1989-1991 supplement; 4. Special Studies Series (Newport, RI: Naval War College, [1990]), p. 15.

(20) انظر: مقابلة مع الرئيس الإيراني الأسبق أبو الحسن بني صدر ضمن برنامج =

من المفيد الإشـــارة إلى أن مواقف الإمـــام الخميني المضادة للرئيس صدام حســـين كثيرة، نكتفـــي بإيراد موقف أشـــار إليه أبو الحســـن بني صدر في مقابلته مع شـــبكة الجزيرة فـــي 17 كانون الثاني/ يناير 2000، وبيّن فيه أن الرئيس العراقي صدام حسين بعث مندوبًا مخوّلًا يحظى باحترام رجال الدين هو حفيد المرجع الأعلى الشيعي الأسبق السيد أبو الحســـن الأصفهاني الذي قال لهم (على لسان الرئيس صدام كما يبدو): «.. ها قد انتصرت الثورة الإسلامية وتخلصتم من الشـــاه، دعونا نشـــيّد الســـلام بين بلدينـــا»، أجاب (الخميني): «لا، إن نظام صدام محكوم عليه بالســـقوط، وسيسقط خلال ستة أشهر على الأكثر، وكي نعفو عنه (صدام) أرسل مبعوثه هذا».

كوني عراقيًا لا بدّ لي من الإشـــارة إلى أن هنالك قناعة واسعة اســـتقطبت العراقيين هي أن العراق خاض حربًا مشـــروعة للدفاع عن نفســـه وهويته وقيَمه، وما الأمن القومي في أبســـط حالاته إلا نجاح الأمة في الحفاظ على ســـيادتها وقيَمها وهويتها ورفاهها[21].

= «زيارة خاصة»، تحت عنوان «الثورة الإيرانيـــة وأمريكا والعرب»، قناة الجزيرة، الدوحة، تاريخ 17/ 1/ 2000.

(21) مفهوم الأمن القومي مفهوم رجراج كثير التطور عندما تناقشه مدارس فكرية متعددة، وأصل المفهوم الجامع بين العديد من المفكريـــن هو قدرة الأمة (الدولة) على المحافظة على سيادتها وســـلامة إقليمها وقيمها. وهو في الحقيقة حصيلة الفعل المتأتي من تفاعل الدفاع والردع والجهد الاستخباري والسياسة الخارجية بما يصبُّ في مصلحة ســـيادة الدولة ورفاه مواطنيها. كذلك عرّفه حامد ربيع في كتابه نظرية السياسة الخارجية بأنه الحد الأدنى الذي تسمح به دولة ما لحماية وجودها الذاتي. انظر: حامد ربيع، نظرية السياسة الخارجية (القاهرة: مكتبة القاهرة الحديثة، 1969)، ص 29.

وكانت قيم الأمة والهوية الوطنية العراقيــة ورفاه المواطن العراقي كلها مهددة بالطوفان الذي كان يهدد البوابة الشــرقية للأمة بسبب الأهــداف والخطط المذهبية التــي درج حكّام إيــران الجدد على محاولة تصديرها إلى العراق[22]، كغطاء للســيطرة عليه ووضعه في مجال نفوذهم، بما يخدم التوســع القومــي الجديد تحت طلاءات مذهبية ودينية.

أصدرت وزارة الخارجية العراقية كتابًا أجملت فيه التهديدات والخروقات الإيرانية للســيادة العراقية منذ استلام جماعة الخميني السلطة[23]. والمفارقة هنا أن الدواعي الحقيقية لاندلاع الحرب بين

---

(22) لعل مــن الجدير بالذكــر أن كل ما كان يحــذره العراق من تســلّل إيران وأفكار ثورتها إلى العراق، وهو ما كان أحد أســباب الاستباق العراقي، حصل بعد الغزو والاحتلال الأميركيين، وأي ناقــد محايد ينظر إلى ما أضحى عليه الوضع في العراق بعد عشر سنوات من هذا الاحتلال بمعونة وتســهيلات إيرانية لا تنكرها إيران ولا الولايات المتحدة، يرى عمق النفوذ الإيراني المؤثر فيه الآن، حيث تجاوز نفوذ الولايات المتحدة الأميركية كثيرًا وفرض الطائفية والتصفيات الدموية وربما الحرب الأهلية في وقت مقبل. انظر تصريحات محمد علي أبطحي نائب الرئيس الإيراني حينئذٍ في هذا الشأن. وكذلك انظــر: Trita Parsi, *Treacherous Alliance: The Secret Dealings of Israel, Iran, and the United States* (New Haven: Yale University Press, 2007).

(23) بعد انــدلاع الحرب بين العــراق وإيران في أيلول/ ســبتمبر 1980 صدر قرار مجلــس الأمن رقم 479/ 1980 الــذي دعا فيه البلدين المتحاربيــن إلى المبادرة بوقف إطلاق النار في ما بينهما والعودة إلى الحــدود الدولية المعترف بها والدخول في مفاوضات لحل الخلافات القائمة. جاء هذا القرار بعد أســبوع واحد فقط من ردّ العراق الواسع النطاق على العدوان الإيراني المستمر على أراضيه. وافق العراق على هذا القرار ورفضته إيران. وقال الخميني في خطاب له بهذا الصدد ما يلي: «إن هدف الحرب معاقبة قادة البعث المجرميــن وإن حزب البعث تولّى الســلطة ليس عن طريق ثورة إســلامية مشروعة وإنما من خلال عمليات عسكرية غير قانونية وإن أتباع الشيعة في العراق يجب أن يلجــأوا إلى الثورة كما فعل إخوانهم في إيران» انظر: روح الله الموســوي الخميني، الحكومة الإسلامية، ترجمة حامد الغار (بيركلي: [د. ن.]، 1981).

العراق وإيران غابت عن أذهـــان الباحثين الغربيين. ففي ورقة كتبها إيف غريغوري غاوس الثالـــث (F. Gregory Gause III) تحت عنوان «قرار العراق الدخول إلى الحرب 1980 - 1990» في إشارة إلى الحرب العراقية - الإيرانيـــة موضوع هذا الكتاب، وحرب الدخول إلى الكويت في 2 آب/ أغسطس 1990، نراه يتجاهل هذا التهديد، ربما عن عمد أو عن عدم إدراك الدواعي الحقيقية لخوض العراق الحربين آنفتي الذكر. فالشعور بالتهديد الحقيقي من الثورة الإيرانية وسياستها المعلنة وغير المخفية في تصدير الثورة إلى العالم العربي بدءًا بالعراق، كان واضحًا في أحاديث القـــادة الإيرانيين من أعلى مســـتوى، متمثلًا بالخميني مرورًا برئيس الجمهورية أبو الحســـن بني صدر، ثم بقية مســـؤولي الدولة الإيرانية الجديدة وليدة الثورة. كل أولئك المســـؤولين بيّنوا بوضـــوح لا يقبل الشـــك أن هدفهم المقبـــل هو العراق. الهـــدف إذًا كان الكيان وليـــس الرئيس صدام حسين ونظامه[24].

---

(24) بدأ غريغوري غاوس ورقته المشـــار إليها أعلاه مـــن تحليل لخطاب ألقاه الرئيس العراقي الراحل صدام حســـين يوم 17 تموز/ يوليو 1997 في ذكرى 17 تموز/ يوليو التي ســـيطر فيها البعث على الســـلطة، وبعد تمثله لما جاء فـــي الخطاب، بيّن أن معنى الانتصار في إدراك الرئيس هو بقاؤه في السلطة. ويتساءل كيف أن الرئيس العراقي يدّعي انتصارًا في حالة الحرب العراقية - الإيرانية على حساب الخسائر التي أحاقت به، متجاهلًا حقيقة ما جرى في ختام هذه الحـــرب التي لم يكن لا الخميني ولا دوائر مهمة في الغرب تريد لها أن تنتهي. ولم تكـــن لتنتهي إلا بانتصار عراقي بيِّن. انظر: F. Gregory Gause, «Iraq's Decisions to Go to War, 1980 and 1990,» *Middle East Journal*, vol. 56, no. 1 (Winter 2002), pp. 47-48.

وعن إطروحته في شأن الحرب انظر: Stephen Van Evera, *Causes of War: Power and the Roots of Conflict*, Cornell Studies in Security Affairs (Ithaca: Cornell University Press, 1999), and Dale C. Copeland, *The Origins of Major War*, Cornell Studies in Security Affairs (Ithaca: Cornell University Press, 2000), chap. 4.

يرى هؤلاء أن تآكل قدرة الدولة قد يؤدي إلى الحرب.

وضعت الحالة المستجدة في إيران الحكومة العراقية في مأزق دبلوماسي وأمني خطر، بعد القضاء على نظام الشاه الذي نجحت الحكومة العراقية في بناء أسس علاقات مصلحة وحسن جوار معه بعد تضحيات كبيرة، منها التنازل عن نصف شطّ العرب من نقطة التقائه بالحدود الدولية بين العراق وإيران حتى مصبه في الخليج العربي عند رأس البيشة العراقية. ومع بداية التجاوزات والتعديات الإيرانية التي حرّض عليها رجال دين إيرانيون، لا يرون في الحياة إلا الانتقام ممن تسبب في مظلمة ومأساة الحسين بن علي في معركة وادي الطف، وهو أمر يشمل في نظرهم العراقيين جميعًا سنّتهم وشيعتهم على حد سواء[25]، بادرت الحكومة العراقية إلى إعداد ملفٍّ وثائقي قدمته إلى السلطات الإيرانية، توضح فيه طبيعة العلاقات التعاقدية بين العراق وإيران في شأن الحدود المشتركة ومساراتها والأراضي العراقية التي ما زالت تحت سيطرة القوات الإيرانية والتي يجب إعادتها إلى العراق وفق اتفاقية الجزائر في عام 1975، عسى أن تكون هذه الوثائق كافية لتسترعي نظر المسؤولين الدبلوماسيين الإيرانيين الجدد إلى طبيعة الموقف الحدودي وتاريخه. وأودعت الخارجية العراقية نسخة من هذه الوثائق لدى الأمم المتحدة، وأصدرتها تحت عنوان «النزاع العراقي الإيراني - ملفّ وثائقي» أصدرته اللجنة الاستشارية في الوزارة في

(25) هنالك مثل يتندر به العراقيون هو أن الإيرانيين يقولون في أحد أمثالهم «شيعة عراق سنت أست، سنت عراق كافر أست»، أي إن شيعة العراق هم سنة بنظر الإيرانيين، وسنة العراق كفرة، ولا نعلم مدى صحة هذا المثل إلا لإظهار مدى المبالغة السلبية في نظر الطرفين بعضهما إلى بعض.

كانون الثاني/ يناير 1981، أي بعد ثلاثة أشـــهر من اندلاع الحرب بين البلدين[26].

نعتقد أن ما تعرّض له العراق بعد الغزو والاحتلال الأميركيين وفَتْحَ أبوابهِ مشــرعةً للنفوذ الإيراني يؤكد أن الاستهداف الإيراني للعراق بعد الثـــورة الإســـلامية كان للعراق ككيـــان وليس لنظام الحكم ولا لشـــخص الرئيس، وســـنمر في أثناء هذا التقديم على محطات تظهـــر فيها أهمية هذا العامل بشـــكل جلـــي[27]. ورصد عدد من الكتّاب والباحثين الإيرانيـــين إصرار الإمام الخميني على اســـتهداف العراق ودول عربية أخرى كهدف لثورته (الإسلامية)، منهم تريتا بارســـي (Trita Parsi) التي بيّنت في كتابها **تحالف الغدر**، أن الخميني بدلًا من الســـعي إلـــى الفوز بأصدقاء عـــرب، لم يفز نتيجة سياســـات حكومته إلّا بأعداء، وأن تحديه حالة الاســـتقرار الراهنة في الإقليم حـــوّل إيران إلى دولة منبوذة يخشـــاها الجميع ويتحاشـــاها[28]. لذلك فإن الحرب الدفاعية التـــي خاضها العراق طوال ثماني ســـنواتٍ داميةٍ تمتلك الأســـاس الشرعي والأخلاقي، وتندرج تحت هدف واجب الحكومة تجاه شـــعبها في حماية أمنه ورفاهه. وإذا مـــا كان واضحًا لدينا أن إيران كانـــت تهدف بالفعل إلى تصدير ثورتها إلى المشـــرق العربي والجزيرة والخليج كجزء من مشـــروعها الكوني الإســـلامي، فإن العراق قد هدف من حربه

---

(26) انظر: العراق، وزارة الخارجية، اللجنة الاستشارية، **النزاع العراقي الإيراني: ملف وثائقي** (بغداد: اللجنة الاستشارية، 1981).

(27) الخميني، **الحكومة الإسلامية**.

(28) Parsi, p. 97.

الدفاعية إلى إيقاف مد تصدير الثورة عند حدوده الشـــرقية، ومنعها من العبور بأفكارها لتغيير قناعـــات قطاعات من المجتمع العراقي قد تتأثر بهذه الطروحـــات[29]. ومع ذلك فـــإن ردة الفعل العراقية على الأعمال الإيرانية العدوانيـــة التي بدأت يوم الرابع من أيلول/ سبتمبر 1980 حين استخدمت إيران أرضًا عراقية محتلة في (زين القوس) لقصف أراضٍ ومدن ومنشـــآت نفطيـــة عراقية في خانقين ومندلي والنفط خانة، أخذت يوم 22 أيلول/ سبتمبر 1980 شكل العملية الاستباقية، لأنه استقر في ذهن القيادة السياسية العراقية أن الهجوم الإيراني قد أصبح وشيكًا[30].

مع ذلك فـــإن أحد المعارضين العراقيين الســـابقين من حزب الدعوة الشيعي أشار بعد انشقاقه عن الحزب وعن تسييس التمذهب

(29) ترســـخت قناعات قبل الحـــرب العراقية - الإيرانية، وبعـــد اندلاعها لدى الخميني والدوائر القريبة منه، كما لدى المراقبين والباحثين الغربيين على السواء باحتمال انضمام الرأي العام (الشـــيعي) في العراق إلـــى دعاوى الثورة (الإســـلامية) التي قادها الخميني وإعلانها في العـــراق. لا يُنكر أن دوائر قليلة من المسيســـين طائفيًا في العراق الذين مثّلهم حزب الدعوة لجأوا إلى شـــيء من هذا القبيل، واتخذت الحكومة العراقية إجراءات قمعية وتصفوية شـــديدة بحقهم، لكن الرأي العام في الوســـط العربي الشيعي في العراق لم يكن كذلك، بل قاتل الشـــبان الشـــيعة في هذه الحرب إلى جانب وطنهم، وانحازوا إليه دونما إكراه. وعدا من وقع أسيرًا بيد القوات الإيرانية الغازية في ما بعد، لم يهرب إلى جانب (العدو) إلا نفر ضئيل لا يكاد يذكر.

(30) ناقش أنتوني كوردسمان وأبراهام واغنر في كتابهما **دروس الحرب الحديثة (الجزء الثاني): الحرب العراقية - الإيرانية** وفي القســـم الثاني مـــن هذا الجزء الأحوال التي شـــكلت الحرب وأجملاهـــا من وجهة نظرهمـــا بأربعة عوامل هي: الحساســـيات العربية الفارسية، والنزاع على الممرات المائية، والسعي إلى الهيمنة والنفوذ في الإقليم، والاختلافات الدينيـــة (الطائفية): انظـــر: Cordesman and Wagner, vol. 2: *The Iran-Iraq War*.

الشيعي، وهو أحمد الكاتب، إلى أنه كانت هنالك مجموعة من الثوار غير المعممين ومن المثقفين القريبين من الإمام الخميني ممن كانوا يدفعون باتجاه تمتين العلاقة بالعراق، عملًا بأن البلدين جاران وأن العراق استضاف الإمام لمدة أربعة عشر عامًا من دون تضييق، بالضد من قطاعات من رجال الدين ومن الحرس الثوري الإيراني الذي كان قيد النشوء، دفعت وبقوة إلى تأزيم العلاقة بالعراق. وبيَّن أحمد الكاتب أن الذي انتصر من وجهتي النظر آنفتي الذكر هو خيار التأزيم، وبهذا دُفعت مجاميع من حزب الدعوة والمعارضين العراقيين المبعدين إلى التمركز على حدود العراق الجنوبية الشرقية والتسلّل إلى داخل العراق والقيام بعمليات كر وفر، وقد تكون هذه العمليات هي التي أحدثت القناعة بأن العراق سيكون الهدف الأول لتصدير الثورة[31].

في مناقشته عقلانية اتخاذ قرار الحرب بالنسبة إلى العراق وإيران بيَّن ج. حسين راضي في دراسته: «نموذج بديل لعقلانية الدولة في السياسة الخارجية: الحرب العراقية - الإيرانية» أن اللجوء إلى الحرب الوقائية في مسعى لدرء حرب أصبح يقينًا أنها ستُشن، هو أمر مبرر، واستند إلى بسمارك الذي كان يعتقد أن الحرب الوقائية (المانعة) تشبه «القيام بالانتحار خوفًا من الموت»، إلا أن بسمارك نفسه يستمر قائلًا: «إذا ما كان العدو يعد

(31) انظر: عبد الوهاب القصاب، «النفوذ الإيراني في العراق: التحديات والأبعاد،» في: محمد حامد الأحمري [وآخرون]، العرب وإيران: مراجعة في التاريخ والسياسة، تحرير عزمي بشارة ومحجوب الزويري (بيروت؛ الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012)، ص 151-152.

العدة لشن الحرب، سيصبح من الحمق عدم مبادرته بحرب وقائية مانعة»[32]. وعلى الرغم من أن ج. حسين راضي كان في نقاشاته اللاحقة ميّالًا إلى اعتبار أن القصف المدفعي الإيراني لمدن وبلدات ومنشآت عراقية لم يكن في حقيقته مؤشرًا على عدوان إيراني لاحق واسع النطاق، إلا أننا نعود إلى الأخذ بوجهة نظره المرتكزة على جدلية بسمارك، بضرورة شنّ الحرب عند الاقتناع بأن هجومًا معاديًا سيقع. وهذا ما كانت عليه قناعات القيادة العراقية، كما سنرى في ما سيأتي.

يرى أنتوني كوردسمان وأبراهام واغنر في كتابهما دروس من الحرب الحديثة: «ومما تجدر الإشارة إليه أن قيام العراق بغزو إيران لا يُعد لأول وهلة بمثابة بيّنة تشكل نيات عدوانية، أو ارتكاب إثم لاندلاع القتال. كما أن إيجاد قدرات وإمكانات طارئة لغزو إيران لا يمكن اعتباره تحت هذه الأحوال جهودًا أو احتمالات متعمدة إما لغزو إيران أو السيطرة عليها. ومن هذا المنطلق فإن مثل هذه الاستعدادات تُعد بمثابة إجراء يتسم بالحصافة. وفوق ذلك فإن استعداد العراق للغزو والتنفيذ الأولي لهجومه غالبًا ما أثبت عدم ملاءمته أو استيفائه لكافة المقوّمات، لأنه من جانب الصدقية فإن تحوّل العراق من الرد على اشتباكات الحدود في أيلول/ سبتمبر 1980 إلى التعجيل في تنفيذ خطة الغزو قد اتسم بتنفيذ خطة لم يُعد لها الإعداد والتحليل الكافي على الإطلاق»[33].

(32) Razi, pp. 709-711.

(33) أنتوني هـ. كوردسمان وأبراهام ر. واجنر، دروس الحرب الحديثة، ترجمة كلية القيادة والأركان، الإمارات العربية المتحدة، ص 41.

كانت هنالك جملة إجراءات يجب أن تؤخذ بالاعتبار عند التخطيط للضربة الاستباقية وتنفيذها، ومن أهم هذه الاعتبارات اختيار الأهداف وتحليل قيمتها الاستراتيجية بشكل أكثر حصافة، والتوقف عند الاندفاع البري إلى أهداف يمكن الدفاع عنها، وتأمين وحماية أجنحة القوات المندفعة، وتأمين التماس في نقاط تكون المسؤولية فيها واضحة لمن يتولّى حمايتها. وفوق كل هذا عدم تدخل أحد في إجراءات القائد الميداني المسؤول عند قيادته قطعاته، ومنع القيادات السياسية والحزبية من التدخل في الشأن العملياتي. من سلبيات هذه المرحلة في الحرب العراقية - الإيرانية أن الكل فيها تحوّل إلى جنرال يرسم ويخطّط ويفتي في مجريات الحرب، وكيفية خوض المعارك. ومن الملاحظ أنه ومنذ وقت مبكر بدت سمات واضحة لهذه التدخلات، بحيث أدى تراكمها إلى كارثة انهيار الدفاعات العراقية في قاطعي عمليات الفيلقين الثالث والرابع، وإجبار القوات العراقية على الانسحاب إلى الحدود الدولية التي فتحت أراضي العراق للتعرض المعادي لها وفقدان قطاعات مهمة وخطرة فيها.

بعد مرور ست سنوات على الحرب، وفي ضوء احتلال الإيرانيين الفاو في شتاء 1986، بدأت في الأركان العامة العراقية وقفة تأمل وتحليل لما جرى، وكان للضغط المعنوي المتولّد من ضياع الفاو، وللضغط الشعبي لاستعادتها، دور مهم في إعادة الحسابات، وإعادة تقويم الموقف من الحرب واستمرارها. كان الفريق الأول الركن عبد الجواد ذنون رئيسًا لأركان الجيش في هذه المرحلة، وشغل الفريق الخزرجيّ منصب معاون رئيس الأركان

للعمليات فيها، وسنرى بالضبط كيف تجاوزت هيئة الأركان العامة العراقية في ما بعد كل الإخفاقات التخطيطية والتحضيرية عند تخطيطها معارك التحرير التي وضعت حدًا للحرب العراقية - الإيرانية، والتي قادها الفريق الخزرجيّ في مرحلتي التخطيط والتنفيذ في ختام هذه الحرب.

كانت أهداف القيادة العراقية من شنّ الحرب تتلخص في التالي:

- إيقاف مد تصدير الثورة الذي مثّل عنفوان الثورة بعد نجاحها في إسقاط الشاه من دون أن تتدخل الولايات المتحدة الأميركية للدفاع عنه، مع ميوعة الولايات المتحدة وعدم حزمها في اتخاذ أي إجراء جدي عدا التحذير ومحاولة التفاوض لتحرير موظفي السفارة الأميركية المحتجزين في طهران، وفشل محاولتها تحريرهم بالقوة بعد اصطدام وسقوط الطائرات التي كانت تحمل قوة الاقتحام فوق الصحراء الإيرانية[34].

- إسقاط اتفاقية الجزائر التي ظلت شوكة في جنب الرئيس العراقي الذي وقّعها لأحوال مرحلية مع الشاه، وتنازل فيها عن جزء من الإقليم العراقي (نصف شطّ العرب) لإيران، وبشكل غير دستوري[35].

---

(34) Melani McAlister, «A Cultural History of the War without End,» *Journal of American History*, vol. 89, no. 2 (A Special Issue): *History and September 11* (September 2002), pp. 447-449.

(35) بعد أن استهدفت القوات الجوية الإيرانية الأراضي العراقي منتصف أيلول/ سبتمبر 1980، أسقط العراق طائرة فانتوم (F-4) داخل أراضيه وأعلن في 19 أيلول/ =

- شدّ الجبهة الداخلية أمام التحدي الخارجي المتمثل بتهديد الثورة الإيرانية. إذ كان الجانب الإيراني يسعى بشكل محموم إلى تعبئة الرأي العام من العرب العراقيين الشيعة إلى جانبه، وهو ما فشل فيه فشلًا ذريعًا طوال فترة الحرب.

- فحص قدرات القوات المسلحة العراقية واستعدادها للقتال دفاعًا عن سيادة البلد وسلامته الإقليمية ووحدة ترابه. لم يكن هذا الهدف هدفًا رئيسًا لدى القيادة العراقية، لكن يقين هذه القيادة من مواجهة عربية إسرائيلية مقبلة جعل من ضمان الأداء المتفوق للقوات هدفًا تسعى إليه، لضمان الانتصار على الجيش الصهيوني. ومن هنا رأت أن اندلاع الحرب سيعطي بلا شك مؤشرات إلى عوامل الإنجاز والإخفاق في أداء هذه القوات. فالإخفاق في تنفيذ المهمات الجوية كان واضحًا، على الرغم من نجاح عملية الضرب الأولى، والإنجاز في معارك الدرع كان واضحًا كذلك كما في معارك الخفاجية والبسيتين في عام 1981.

- استعادة أراضٍ عراقية اعترفت اتفاقية 1975 بعائديتها إلى العراق، وتلكؤ نظام الشاه في إعادتها نظرًا إلى الظرف الداخلي الذي كان يمر به النظام آنذاك. وهنالك منطقتان حيويتان حول مدينتي مهران وقصر شيرين تؤمّن إعادتهما إلى العراق دفاعات عراقية أفضل على الحدود بين البلدين. علمًا بأن إيران استخدمت

= سبتمبر 1980 انسحابه من هذه الاتفاقية وعدم التزامها، إلا أنه عاد وأعلن الأخذ بها بعد تطبيع العلاقات بين البلدين عشية عملية إخراج العراق من الكويت. انظر الصحافة العراقية في 19 و20 أيلول/ سبتمبر 1980.

هذه المناطق بالذات لقصف مدينتـــي خانقين ومندلي وحقول نفط «النفط خانـــة» بالمدفعية، خلال فتـــرة توتر العلاقـــات العراقية - الإيرانية الذي أدّى في ما بعد إلى اندلاع الحرب.

- اغتنـــام فرصة الفوضى التي كانت تعانيهـــا إيران بعد الثورة وتوجيه ضربة قاصمة إلى القوات المســـلحة الإيرانية بشـــكل ينهي تهديدها العراق.

- تحرير إقليم عربستان (خوزستان) المأهول بالعرب والغني بالنفط، مع أن هذا لم يكن هدفًا معلنًا من أهداف الحرب، لكنه كان ينســـجم مع النهج القومي العروبي الذي اتســـم به نظام الحكم في العراق.

- إضعاف نظام حكم الملالي في إيران وتمهيد الأوضاع لنظام حكم ذي صفة علمانية يمكن العراق التفاهم معه، ويبعد التأثير السلبي لنظام الخميني عن شيعة العراق والخليج العربي. أذكر في هذا الصدد أن نظام حكم البعث احتضن قبـــلًا الجنرال تيمور بختيار أول رئيس لجهاز الأمن والاستخبارات الإيرانية (الســـافاك) الذي أقصاه الشاه عنه في عام 1961 والتجأ إلى العراق. وخطط العراق للاستفادة من وجوده بهدف التعجيل بتنفيذ انقلاب للسيطرة على السلطة في إيران. ومن المعلـــوم أن الجنرال بختيار اغتيل على يد مرافقه الذي دسّـــته أجهزة الاستخبارات الإيرانية (السافاك) في عام 1970.

- الظهور كقوة إقليمية متفوّقة تجبـــر العالم على التعامل مع العراق على هذا الأساس.

ثالثًا: الأهداف الإيرانية من الحرب

إذا كان العراق قد استهدف إيران بضربة استباقية (لا تعني بالمقاييس العسكرية أنه هو الذي بدأها) فإن إيران على الرغم من الوضع السيئ الذي كانت تعيشه قواتها المسلحة النظامية بعد نحو سنتين على اندلاع الثورة (الإسلامية) ونجاحها، استهدفت العراق بالفعل كما هو مسجّل لدى الأمم المتحدة، وكما أشارت إليه البلاغات والبيانات التي أعلن عنها الطرفان منذ يوم 4 أيلول/ سبتمبر عندما قصف الإيرانيون أهدافًا عراقية في القاطع الأوسط (خانقين ومندلي)، وصعّدوا حتى استخدموا الطيران لقصف أهدافٍ داخل العراق في منتصف الشهر نفسه، حتى أتى الرد العراقي الواسع النطاق في الثاني والعشرين من أيلول/ سبتمبر[36]. فهل كانت هنالك أهداف حقيقية تدفع إيران إلى غزو العراق واحتلاله، وتصدير ثورتها الإسلامية إليه عبر تثوير الرأي العام الشيعي في العراق ضد حكومته الوطنية، بغية إسقاطها وتولّي أنصار ولاية الفقيه السلطة في العراق تبعًا لذلك؟

واجهت إيران عند انتصار الثورة حالًا من الفوضى وانفلات النظام، مضافًا إليها التحريض الذي مارسه رجال الدين ضد مؤسسة القوات المسلحة النظامية، باعتبارها من المؤسسات التي كانت تدين بالولاء لنظام الشاه، لذلك تمت تصفية هذه المؤسسة، ودعوة أفرادها إلى الفرار منها حتى قبل انتصار الثورة. ولعل من أهم ما يُذكر هنا الفتوى التي أصدرها الخميني في السابع عشر

---

(36) كوردسمان وواجنر، ص 44.

من كانـــون الثاني/ يناير 1979 عشـــية انتصار الثـــورة، حين دعا الجنود وصغـــار الضباط إلى الفرار والانضمـــام إلى الثورة. وبعد انتصار الثورة بُدِئ بمطاردة الجنرالات وكبار الضباط وإعدامهم، وكانت جثـــث المعدومين تعـــرض على شاشـــات التلفاز، ويقال إن عدد الجنـــرالات وكبار الضباط الذين تـــم إعدامهم بلغ 550 ضابطًا، أُعدم أغلبهم فـــي نهاية آذار/ مـــارس 1979 بعد انتصار الثورة مباشرة[37].

واجهت الثورة منـــذ أوائل انطلاقهـــا مشـــكلتين مثّلتا تحديًا حقيقيًا لهـــا ولوعودها في تحســـينٍ طبيعـــة الحياة فـــي المجتمع الإيرانـــي المتنوع، إذ اندلعت في كلٍ من كردســـتان الإيرانية حركة ثورية مطالبة بالحكم الذاتي وداعيةً قادة الثورة إلى إنجاز وعودهم للشعب، قوبلت بالقمع الشـــديد على يد الحرس الثوري والقوات النظامية. وفي الوقت نفســـه تقريبًا شـــهد ربيع 1980 تصاعد ثورة إقليم (الأحواز) عربســـتان الداعية إلى تحقيق وعـــود الثورة بمنح الســـكان العرب حقوقهم القومية والثقافية، وقُمعت بشـــدة. وقام الأدميـــرال مدنـــي، محافظ الأحواز، باســـتخدام أقصـــى درجات العنف ضـــد المتظاهرين والمُضربين، حتى لجـــأ الألوف منهم إلى الحدود العراقية في المكان نفسه الذي ســـيصبح في ما بعد ساحة للحرب العراقية - الإيرانية. ومن المهم بيان أن حركة اللجوء هذه والاحتجاجات التي سبقتها أعطتا القيادة العراقية تصورًا بأن سكان الأحواز العرب ســـينضمون إلى القوات العراقيـــة باعتبارها قوات

(37) المصدر نفسه، ص 44.

تحرير، وهذا ما لم يحصل إلا في نطاق ضيق جدًا ولفترة محدودة، إذ لم يكن هذا التصور إلا تصورًا زائفًا.

شهدت هذه الفترة عمليات تطهير إضافية في القوات النظامية التي جرى تفكيكها تقريبًا بشكل عملي. وعلى الرغم من المسعى والرغبة والإرادة المتوافرة أساسًا بالتدخل عسكريًا في الشأن العراقي، كان لعملية الإضعاف المتعمد وتصفية القادة أثر في جعل القيادة الإيرانية الجديدة تدرك بالفعل الصعوبات التي ستواجهها لو شنّت حربًا واسعة النطاق على العراق، كما أن صعوبات جديدة نشأت بسبب احتلال الطلبة الثوريين السفارة الأميركية في طهران، وتفاقم الموقف حيال الولايات المتحدة، وموقف الأخيرة من النظام الجديد في طهران، مع أنها ساهمت في انتصاره، بتدخّلها لمنع القوات المسلحة من قمع الثورة. تشير الدراسات إلى أن التراجع في مستويات القوات المسلحة الإيرانية بسبب توقف التدريب والتمارين القتالية عطّل ما نسبته 3 في المئة من معدات القوات البرية، و50 - 60 في المئة من الطائرات، و60 في المئة من الطائرات السمتيّة (الهليكوبتر)، وأدى إلى تصفية وطرد 25 - 30 في المئة من الضباط متوسطي الرتب، وإلى ترك الآلاف من صغار الضباط الخدمة النظامية بحسب إحصاءات نهاية شباط/ فبراير 1980[38].

تمخض عن هذا الموقف بروز دعوة وجدت لها صدىً لدى القيادة الدينية، بأن تتولّى الجماهير المؤمنة حماية ثورتها. من هنا

(38) كوردسمان وواجنر، ص 45.

تم تشـــكيل الحرس الثوري، وشـــكّل هذا التطور انتقال الرأي إلى مجموعة من رجال الدين المعممين بدلًا مـــن هيئة الأركان العامة التي لم يعد لهـــا وجود عمليًا، على الرغم مـــن تعيين قائد للجيش عند تسنّم رئيس الجمهورية أبو الحسن بني صدر مهماته(39).

هكذا دخلت إيـــران الحرب، ولو بمناوشـــات حدودية، من دون أن تكون جاهزة مـــن الناحية القتاليـــة الفعلية لخوض حرب نظامية حديثة مع جارٍ يتوافر له تســـليح جيد بالمستويات الإقليمية وخبرة قتالية ليســـت قليلـــة. وإذا كانت لغة التحريـــض والتهديد الإيرانية قد تركت لدى القيادة العراقيـــة المقابلة إيحاءً وقناعة بأن غزوًا إيرانيًا لتصدير الثورة أضحى وشيكًا، فإن اللغة نفسها مضافًا إليها تحريضات المنشقين العراقيين الهاربين إلى إيران والمبعدين إليها أعطـــت القيادة الإيرانيـــة انطباعًا خاطئًا أيضًـــا، هو أن ثورة شعبية شيعية ســـتنطلق في العراق فور مناداة الخميني بذلك، وهو ما لم يحصل.

بهذا ســـاهمت رســـالتان خاطئتان وزائفتـــان التقطتهما قيادتا البلدين في نشوب وضع خطر ساقهما إلى الدخول في نزاع تحوّل صراعَ مصيـــرٍ لم تضع له حـــدًا إلا خمس منـــاورات قتالية نفّذتها القوات المســـلحة العراقية اعتبـــارًا من نيســـان/ أبريل حتى الثامن من آب/ أغســـطس 1988، بعد أن حصد طوال ثمانية أعوام آلاف الشبان من الجانبين.

(39) المصدر نفسه، ص 45.

الفصل الثاني

خلفيات النزاع

الصراع العراقي - الإيراني ليس جديدًا، بل هو صراع موروثٌ من حقب سـابقة، في أوجه متعـددة منه. وقد يكون من تبسـيط الأمور إسـناد هذا الصراع إلى عوامـل معيّنة بعينهـا، كأن نَصِف الصراع بأنه عربي - فارسـي، استـنادًا إلى صراع سابق في صدر الإسلام تسبب في انهيار الإمبراطورية الساسـانية التي كانت ثانية أعظـم إمبراطوريتين في العالـم القديم آنذاك، كما أن من تبسـيط الأمور إحالة الصراع على خلاف مذهبي سُـني - شيعي، لأن هذا الخلاف كان موجودًا طوال عمر التاريخ الإسـلامي، وفي العراق بالذات في وقت لم تكن فيه إيران شـيعية الهوية. لذلك لا بد عند البحث في أساسيات هذا الخلاف وأسـباب استمراره من استنباط مقاربات معرفية أكثر عمقًا وشمولًا. وفي هذا المجال فإن كثيرًا من البحوث والكتابات العلمية ضل سـبيله وافتقد العمق المعرفي لأنه ركن إلى الأسباب والظواهر الظاهرة فحسب، الطافية على السطح في معالجته المعضلات التي يدرسها وينقّب فيها. ويكتسب موقف كهذا أهمية عندما تكون الخلافات ضاربة في عمق التاريخ ومتعددة الطبقات، إذ سـيكون لكل المجـالات المعرفيـة دورٌ في إيضاح وإماطة اللثام عن الدواعي الحقيقية التـي جعلت من خلاف كهذا عميقًا ومؤثّرًا بالشكل الذي رأيناه.

لا يصحُّ ما ورد آنفًا على الصراع العراقي - الإيراني في حقبته الحالية فحسب، بل إن هنالك مظاهر صراعية بين إثنيات وشعوب وأقـوام ودول في أماكـن أخرى مـن العالم، تشـترك من حيث مضمونها مع الصـراع العراقي - الإيراني الراهن بأبعادها التاريخية والمكانية والاجتماعية. خذ مثلًا على ذلك النزاع الألماني الفرنسي أو البريطانـي الفرنسـي في الغـرب، والصراع الصينـي الياباني، والكوري الياباني في الشـرق. وهي كلها صراعات لم تكن لمجرد خلافات حدودية معينة، أو انتهاكات سبّبها غزوٌ من هذا الطرف أو ذاك، بل إنها في واقع حالها خلافات صراعية سبّبتها عوامل متفاعلة من كل عناصر التفاعل الإنسـاني بين الشعوب. ومن هذا المنطلق نحاول في الصفحات التالية دراسـة وتلمّس الاعتبـارات المهمة التي تؤثّر في هذا النزاع وتجعله ممتد الأثر عبر الأزمان، يخبو تارةً ويلتهب أخرى.

أولًا: الاعتبارات الجيوبوليتيكية

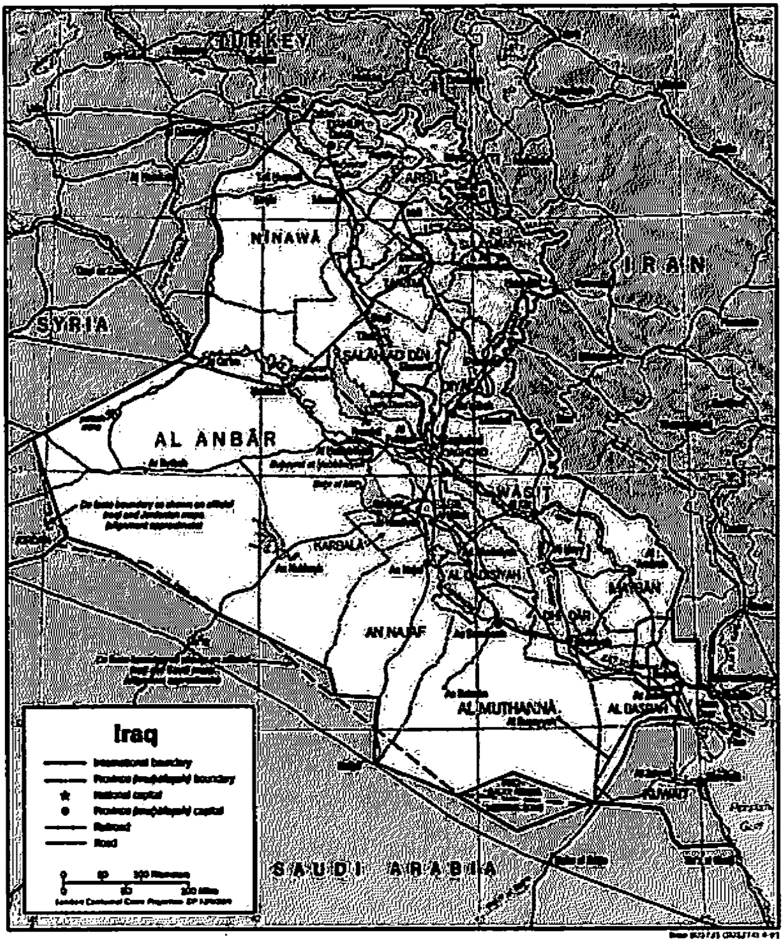
كانت الاعتبارات الجيوبوليتيكية على الدوام حاكمة في قضية الحدود العراقية - الإيرانية، ومن قبلها بين الدولة العثمانية وفارس. وورث العراق حقيقةً تداعيات هذه الحدود التي تمتد إلى ما يقرب من 1250 كلم، وتشـهد تداخلات إثنية وطوبوغرافية بين طرفيها، الأمر الذي يجعلها حدود احتكاك ونزاعات أكثر منها حدود حسن جوار وسلام.

تُقسـم الحدود العراقية - الإيرانية من هذه الناحية إلى ثلاثة قواطع يتميز كلٌّ منها بسـمات محددة؛ فالقاطع **الأول** هو القاطع

الجبلي، ويبدأ من المثلث الحــدودي العراقي الإيراني التركي في أقصى الشمال الشـــرقي نزولًا إلى (سلســـلة جبال آق طاغ) قرب خانقيـــن. يتميز هذا القاطع بكونـــه جبليًا وعرًا تنعــدم فيه الطرق الصالحــة لحركة الآليــات الثقيلة، إلا في طريقين رئيســتين، تقع إحداهما في أقصى الشمال الشرقي وهي طريق أربيل - راوندوز - حاج عمران - رايات وإلى أشـــنوية في داخل إيران، وهي الطريق التي سلكتها الجيوش القيصرية الغازية في الحرب العالمية الأولى عند اســتهدافها الموصل وتوقفت عند راونـــدوز. والطريق الثانية هي طريق بغداد - بعقوبة - خانقين - قصر شــيرين - ســريّ بول زهاب - باي طاق - كرمنشـــاه - همدان - كـــرج - طهران. وهي الطريـــق الدولية التي تربـــط عاصمتي البلدين، وتتميـــز بأنها تُفتح على ســـهل وادي الرافديـــن بعـــد اجتيازها الحـــدود، ولا حاجزَ طبيعيًا أمامها، إلا سلســـلة تلال حمرين التي تقطعها باتجاه جنوبي شرقي - شمالي شرقي عند السعدية وعلى بُعد نحو 120 كلم من بغداد، وهنالك طريق أخرى تتجاوز هذه الطريق وتطوّق بغداد من جناحها الجنوبي، وتخلو من الموانع الطبيعية بعد دخولها الأراضي العراقية، وهي طريق عيلام - مهران - بدرة - بسماية - بغداد. يُعد مرور خطّ الحدود من خط القمم على طول سلسلة جبال هورمان ذا تأثير اســـتراتيجي متســـاوٍ للبلدين. ومنطقة الحـــدود هي منطقة كردية إثنيًا، وكانت تعاني طوال حقبة الحروب العثمانية الفارســـية تدخلات إيرانية وادعاءات بقاطع سوران (شهرزور) العراقي الذي مركزه مدينة السليمانية.

الخريطة (2 - 1)

خريطة العراق الطبيعية ويبدو فيها القاطع الشمالي الجبلي الذي يتساوى فيه تأثير الحدود في الجانبين والقاطع الأوسط الخطر على بغداد، والقاطع الجنوبي شديد الخطورة من الناحية الاستراتيجية



يبدأ القاطع الأوسط، الثاني، من خانقين ويسير بشكل مقعّر على العراق باتجاه الجنوب الغربي، ثم ينعطف باتجاه الجنوب الشرقي حتى الفكة شرق العمارة، فهو مقعّر لمصلحة إيران، ويقرِّب إيران من بغداد بشكل خطِر، بحيث تكون المسافة بين الحدود الدولية وبغداد على الطريق العام ليست أكثر من 150 كلم، تقطعها العجلات الحربية الحديثة في سويعات قليلة بحيث تصبح العاصمة العراقية مهددةً من هذا الاتجاه لوجود كثير من الطرق السالكة التي تقرِّب الحدود الإيرانية من بغداد، ومنها، فضلًا عن طريق بغداد - بعقوبة - المقدادية - السعدية - خانقين - المنذرية - خسروي (الحدود الإيرانية) - قصر شيرين - باي طاق - كرمنشاه الذي يُعد الطريق الدولية الرئيسة التي تربط العراق بإيران، وتُعتبر طريق الترانزيت التي كانت تسلكها التجارة الإيرانية العابرة التي كانت تسلك طريق موانئ البحر المتوسط إلى إيران عبر كلٍ من سورية ولبنان والعراق. تساعد مجموعة المرتفعات وسلاسل التلال التي تحفل بها هذه الطريق في جانبها الشرقي في الدفاع حيال عدو متقدم من الجانب الإيراني، وهي سلاسل آق طاغ التي تشكّل خطّ الحدود، ودراويشكة غرب خانقين، وحمرين التي تشكّل آخر مانع جدي لدحر القوات الغازية من الشرق.

لخطورة هذه الطريق، كان من أهم خيارات استراتيجيا العمليات عند وضعها خطط الهجوم الاستباقي الذي نفّذته القوات العراقية يوم الثاني والعشرين من أيلول/ سبتمبر 1980 الاندفاعُ عبر قصر شيرين والوصول إلى سربيل زهاب/ باي طاق، وتم ذلك بنجاح. وبعد تنفيذها تعرّضها النهائي في عام 1988 قامت بالأمر

نفسه أي الاندفاع عبر حوض قصر شيرين والوصول إلى باي طاق لإجهاض أي تعرّض معادٍ من هذا الاتجاه.

شهد هذا القاطع الحدودي بامتداده المقعر الواقع بين حلبجة ومهران[1] كثيرًا من المعارك الحاسمة في القاطع المحصور بين قصر شيرين ومهران، وأودت هذه المعارك بأرواح كثيرين، لسبب رئيس هو إجهاض أي إحاطة تستهدف الالتفاف على الطريق الرئيسة بغداد - خانقين - قصر شيرين - باي طاق. لهذا السبب تم تنفيذ اندفاعات عملياتية استهدفت مدن سومار مقابل مندلي وكيلان غرب، في قاطع مندلي ومهران نفسه مقابل بدرة العراقية.

أما الطرق الأخرى التي يحويها هذا الاتجاه فهي:

- طريق بغداد - بعقوبة - بلدروز - مندلي - سومار.

- طريق بغداد - بسماية - بدرة - مهران عيلام.

وهما طريقان تتجاوزان العوارض الدفاعية التي تقطع الطريق الدولية المشار إليها، وتُسهّلان الإحاطة المعادية للجانب المتقدم من الشرق، وتقرّبانه من بغداد لتُسهِّلان له دخولها من الجنوب والشرق.

هنا أيضًا لاحظنا أن مهران كانت هدفًا للتعرضات العراقية كلها منذ بدء العمليات حتى ختامها، لأهمية وخطورة القاطع الذي تسيطر عليه ووعورته من الجانب الإيراني، الأمر الذي يُعطيه مزية استراتيجية على الجانب العراقي الذي تنفتح الأراضي فيه، وتنساب

---

(1) انظر الخريطة (2 - 2)، ص 62 من هذا الكتاب.

باتجاه بغـــداد عبر أراضٍ مفتوحةٍ يصعب الدفـــاع عنها. والملاحظ أن المرتفعات المشـــرفَة على مهران هي مرتفعات اعترفت اتفاقية 1975 بعائديتهـــا إلى العراق وتلكأت إيران أيضًـــا في إعادتها أيام الشاه، ورفض المعممون الحاكمون ذلك أيضًا حينما فاتحتهم فيها الخارجية العراقية بالطرق الدبلوماسية.

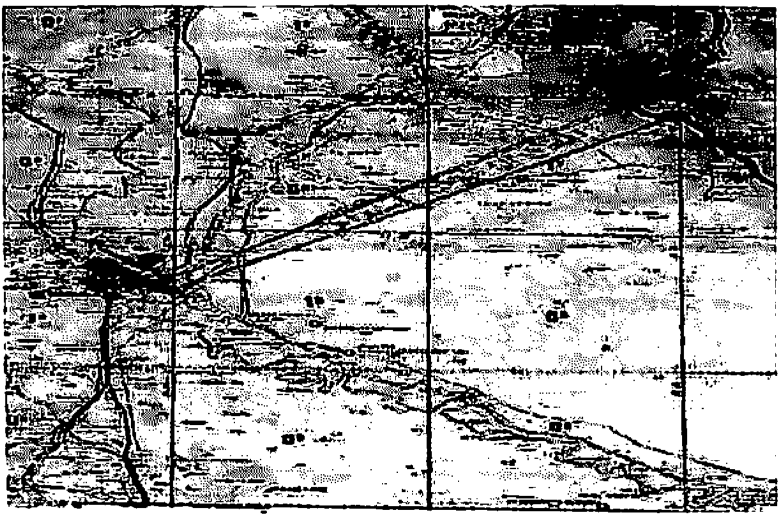
يشكِّل قطاع الحدود من الجانب الإيراني مناطق جبلية وعرة مؤلفة من سلســـلة جبال بشـــتكوه، حيث تمر الحدود من سفوحها الغربية تاركة خطّ القمـــم لإيران، الأمر الذي يشـــكِّل وهنًا بيِّنًا في غير مصلحة العراق (انظر الخريطـــة (2 - 2) التي تبيِّن قُرب خطّ الحدود الدولي من بغداد).

كان خـــط الحـــدود المنطقي منـــذ القدم هو مدخـــل مضيق باي طاق في ســـربيل زهاب الذي كان يتيح للعراق الســـيطرة على مخرج المضيـــق الذي يقود إلـــى الداخل الإيراني؛ كرمنشـــاه وما وراءها، هنالك دافع العباسيون في المرحلة الأخيرة من دولتهم أيام الناصر لدين الله، عندما أعاد ســـطوة الخلافة على كامل الأراضي العراقية التي يحكمها حكمًا مباشـــرًا[2]. وهنالك أنشـــأ العثمانيون مواقعَ لحامياتهم أيام صراعهم مع الصفويين، لكنهم تنازلوا عنها للإيرانيـــين باعتبـــار أن الدولـــة العثمانية اعترفـــت بعائدية أردلان (وباي طاق منها) إلى إيران، مقابل تنازل إيران عن أي ادعاءات في

(2) للاطلاع على جهد الناصـــر لدين الله العباســـي (1190م-1237م). انظر: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر الســـيوطي، تاريخ الخلفـــاء (بيروت: دار الكتاب العربي، 2006)، ص 343-350.

شهرزور (السليمانية) وسوران. ومع ذلك احتلّت القوات العثمانية هذه المنطقة لتؤمّن جناح قواتها حيال تسلّل روسي محتمل عبر إيران، وهو ما تم بالفعل. وجرى قتال شرس بين الطرفين حتى اندلاع الثورة البلشفية التي ربما لولاها لتقاسم الروس والبريطانيون العراق.

الخريطة (2 – 2)
القطاع الحدودي الأقرب إلى بغداد:
قاطع مندلي – النفط خانة – بغداد



تمثل الخريطة (2 –2) القطاع الحدودي في القاطع الأوسط مقابل بغداد، حيث تكون أقرب مسافة شعاعية من بغداد نحو 80 كلم. والقاطع الجنوبي، هو الأخطر، إذ بعد أن يدخل هور الحويزة يتعامد على شط العرب في منطقة الشلامجة – قناة الخيين. وفي ما

عدا القاطع بين الفكة شرق مدينة العمارة مرورًا بهور الحويزة كشك البصري شرق البصرة ونقطة الدخول في شط العرب الذي يكون أثيره متساويًا للطرفين، فإن الحدود في شط العرب كانت على الدوام مشكلة المشكلات بين البلدين، والاعتبارات الرئيسة لها هي اعتبارات جيوبوليتيكية.

كانت جزيرة الخضر (عبادان) كلها المحصورة بين شط العرب من الغرب وترعة بهمنشير من الشرق، والخليج العربي من الجنوب والكارون من الشمال، جزيرة عثمانية أكدتها اتفاقية الحدود الأولى التي تُعرف بمعاهدة زهاب المعقودة في 17 أيار/ مايو 1639 في زمن السلطان مراد الرابع[3]. ثم بدأ التراجع باتجاه شط العرب حتى أجبرت الأحوال العراق على التنازل عن نصف ملكيته المعترف بها من الشط في اتفاقية 1975. وكانت اتفاقيات عدة قد عُقدت بين اتفاقيتي 1639 و1975، مثل اتفاقيات 1847 و1913 و1937، وشهدت كلها تنازلات لمصلحة إيران. وتفاوتت آراء كثيرين من الباحثين الذين تناولوا هذا النزاع منذ اندلاعه عام 1980 حتى الآن، في تحميل الإرث التاريخي والاحتكاك العربي الفارسي مسؤولية اندلاع هذا النزاع[4]. وعلى

(3) Will D. Swearingen, «Geopolitical Origins of the Iran-Iraq War,» *Geographical Review*, vol. 78, no. 4 (October 1988), pp. 405-412.

(4) انظر على سبيل المثال في هذا المجال: بيانات القيادة العامة للقوات المسلحة العراقية وخطابات القيادة العراقية التي كانت تعطي البعد التاريخي الإثني دورًا مهمًا في النزاع العراقي – الإيراني؛ Phebe Marr, *The Modern History of Iraq* (Boulder, Colo.: Westview; London: Longman, 1985), and Jasim Mohammad Abdulghani, *Iraq and Iran: The Years of Crisis* (London: Croom Helm, 1984).

الرغم مما في هــذا الطرح من منطق، فإنه ليس الســبب الحقيقي للنزاع، بدليل أن البلدين تعايشــا فترات طويلة دونما مشــكلات بينهما، واستطاعا أن يجدا وسيلة للتعايش السلمي وحسن الجوار في كل مرة توصّلا إلى تفاهم على المطالب الســيادية والإقليمية والحدودية بينهمــا. الجيوبوليتيكا إذًا ســبب رئيس من أســباب النزاع الذي أضحى لا يقتصر على خــط الحدود بين البلدين، بل امتد ليشمل دور وموقع كلٍّ من البلدين جيوستراتيجيًا في الخليج العربي، بعد أن تحــوّل البلــدان قطبين من أقطــاب مثلث القوة الخليجي، أو مربع القوة إذا اعتبرنــا الوجود الأميركي فيه وجودًا مستمرًا في المستقبل المنظور.

عند مراجعة خطة التعرض الاستباقي العراقي في 22 أيلول/ ســبتمبر 1980 ســنجد أن محاور الطــرق هذه كانــت الأهداف الأساسية لخطة التعرض هذه، وكانت تهدف إلى منع الإيرانيين من اســتخدامها في هجوم توصلت قناعة القيادة العراقية إلى أن إيران ستسلكها عند تنفيذه.

يتوقــف بعــض الباحثيــن الغربيين فــي دراســته وتحليله الأســباب الداعية إلى الحــرب، أي التي قادت إليهــا عند حقيقة دأب العراقيون (ومعهم مناصروهم من العــرب) في تبيانها وهي أن إيــران كانت دائمًا ذات أهداف توســعية باتجاه العراق، وعلى مدى التاريخ، لكن الملاحــظ أن الغربيين لا يوردون هذه القناعة كما يعرضهــا العراقيون، بل من خلال دراســة التراتبيــة القيادية

والعقيدة العسكرية وراء بناء القوات المسلحة لكلٍّ من البلدين. ففيما يؤكد إفرايم كارش، المحاضر في الأمن الإقليمي في قسم دراسات الحرب في كنغز كوليدج - جامعة لندن، في دراسته: «القدرة العسكرية وأهداف السياسة الخارجية: الحرب العراقية - الإيرانية بنظرة جديدة» أن بناء القوات المسلحة العراقية كان بناء دفاعيًا تحسبيًا حيال تهديد محتمل مصدره إيران، وأن الوهن الجيوبوليتيكي الذي يعانيه العراق كان على الدوام مانعًا من توفيره بحريةً قتاليةً قادرةً على الحسم في مسرح عمليات الخليج العربي البحري، يرى الكاتب نفسه أن بناء القدرة الإيرانية العسكرية في أيام الشاه جعل لها قدرات وإمكانات تعرضية في البر والبحر والجو[5]. وهذا يؤكد أن الخشية العراقية من هجوم إيراني وشيك، بناءً على القناعات المترسخة بأهداف إيرانية متجددة في العراق بعد التغيير الذي أتى بالإسلاميين إلى السلطة، كانت أحد أهم أهداف شنّ الحرب الاستباقية العراقية، ردًا على العدوان الإيراني الذي ابتدأ بقصف إيران المدن والبلدات والمنشآت الاستراتيجية في 4 أيلول/ سبتمبر 1980[6].

---

(5) انظر: طلال عتريسي، «العرب وإيران: مصالح مشتركة وعلاقات غير مستقرة،» في: محمد حامد الأحمري [وآخرون]، العرب وإيران: مراجعة في التاريخ والسياسة، تحرير عزمي بشارة ومحجوب الزويري (بيروت؛ الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012)، ص 103-104، و Efraim Karsh, «Military Power and Foreign Policy Goals: The Iran-Iraq War Revisited,» *International Affairs*, vol. 64, no. 1 (Winter 1987-1988).

(6) F. Gregory Gause, «Iraq's Decisions to Go to War, 1980 and 1990,» *Middle East Journal*, vol. 56, no. 1 (Winter 2002), p. 49.

يطرح إفرايـم كارش نظرية الحتـم الجيوبوليتيكي باعتبارها أسـاس النزاع العراقي - الإيراني[7]. ويحمّل هذا الطرح في واقع الحال الكثير من الصدقية، فالذي يبحث عن الأسـباب سيجد أن وضع العـراق الجيوبوليتيكي لا يتناسـب مع اتسـاعه الجغرافي والسكاني. لدينا بلد مساحته تقارب النصف مليون كلم²، وسكانه يناهـزون الثلاثين مليونـًا أو يزيد، وإمكاناته تجعلـه بلدًا واعدًا، إلا أنه بلد شـبه مغلق جغرافيًا، بلد يشـبه فيلًا يقـف مقلوبًا على خرطومه (شـط العرب) تشـاركه إيران في منفذ تنفسـه الشرقي، والكويت في منفذ تنفسـه الغربي. موقع جيوبوليتيكي يحمل كل أوزار الجغرافيا التي تفرض على بلد، كما هو ممر دانزيغ لألمانيا قبل أن تُسلب منها بروسيا الشرقية.

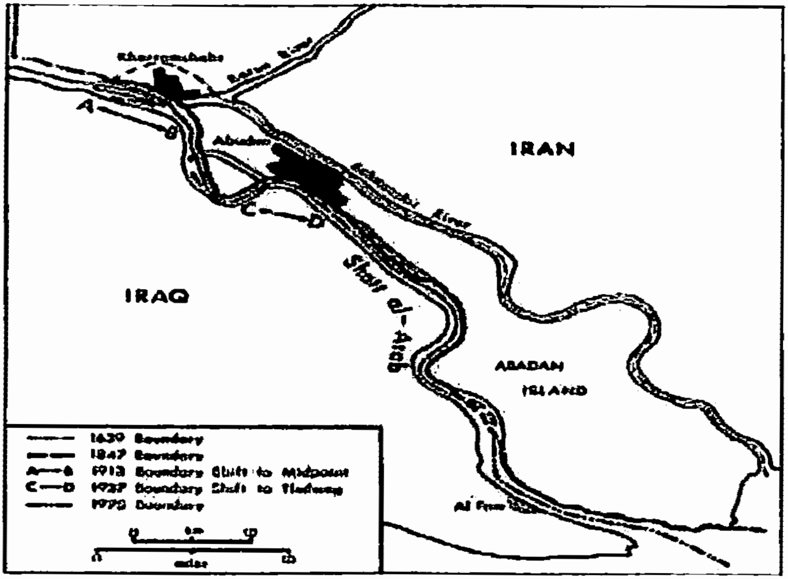
وجُرح العـراق في كرامته عندمـا انحنى للابتـزاز الإيراني ووافق على التنازل عن نصف شـطّ العرب وفـق اتفاقية 1975 المعقـودة بين البلدين، وعلـى الرغم من الفتـرة المحدودة التي شـهدت تحسـنًا نوعيًا في العلاقات بعد عقد هذه الاتفاقية، أدّى إعلان النظـام الجديد في إيـران عدم اعترافه لفظيًـا بها، وتردّي العلاقات على نحو متسـارع إلى أن يطلّ الحتـم الجيوبوليتيكي برأسه مرة أخرى.

---

(7) Efraim Karsh, «Geopolitical Determinism: The Origins of the Iran-Iraq War,» *Middle East Journal*, vol. 44, no. 2 (Spring 1990), pp. 256-268.

الخريطة (2 - 3)

انزياح خط الحدود في شط العرب لغير مصلحة العراق عبر الفترة التعاهدية منذ اتفاقية 1639 حتى عام 1975



المصدر: نقلًا عن: Will D. Swearingen, «Geopolitical Origins of the Iran-Iraq War,» *Geographical Review*, vol. 78, no. 4 (October 1988), p. 410.

ثانيًا: انعدام الثقة بين الطرفين

لم تُفاجأ القيادة السياسية ولا العسكرية بالنيات الإيرانية، إذ كانت قد اتخذت سلسلة من الإجراءات المتالية على صعيد التخطيط وتفحص ساحة العمليات منذ اللحظة التي تولّت فيها القيادة الإيرانية الجديدة السلطة، ووضوح نياتها حيال العراق من البرقية المشهورة الموجّهة من الخميني إلى المرحوم محمد باقر الصدر التي يطلب إليه فيها التهيؤ لقيادة الثورة الإسلامية في

العــراق[8]. ومن الرد غير اللائق على رســالة التهنئة التي أرســلها الرئيس أحمد حسن البكر إلى القيادة الإيرانية للتهنئة بالثورة.

يرى بعض الكتــاب الغربيين الذين تناولوا الحــرب العراقية الإيرانية بالدراسة المعمقة، أن ما ترســب لدى القيادة العراقية من تحسُّــب من ســوء العلاقة في المســتقبل بحكام إيران الجدد، قد ســاهم في بناء أجواء انعدام الثقة بالنظام الجديــد في إيران، على الرغم مــن أن القيادة العراقية أبدت رغبتها فــي بناء علاقات جيدة بـ«الأشقاء الإيرانيين» بعد انسحاب إيران من معاهدة حلف السنتو (بغداد ســابقًا)، وعرضت مســاعيها الحميدة للمســاعدة في منح إيــران عضوية منظمة عدم الانحياز لو رغبــت في ذلك. وجاء هذا العرض برســالة دعوة إلى زيارة العراق موجّهة إلى رئيس الوزراء الإيراني الجديد بعد الثــورة مهدي بــازركان، وكذلك ما قيل عن إرســال الرئيس البكر رســالة إلى الخميني يقترح فيها زيارة إيران والرد الإيراني الجاف وغير الدبلوماســي عليها. وأشار ج. حسين

(8) أسهمت هذه البرقية في تسميم أجواء العلاقات بين البلدين، وكانت سببًا في محاكمة الراحل الصدر وتنفيذ حكم الإعدام به لتهديده سلامة نظام الحكم وللتآمر. وقد اتُّخذت البرقية المذكورة مستمسكًا جرميًا في الدعوى. في الواقع كان يدور في الكواليس وسماعًا من مسؤولين أمنيين كثيرين أن السلطة حاولت كثيرًا مع الراحل الصدر لثنيه عن الاصطفاف إلى جانب الخميني، خصوصًا أنه الأعلم، فضلًا عن كونه عراقيًا عربيًا وليس ذا أصول إيرانية وهو ما كانت تفضله الحكومة العراقية من تشــجيع للمرجعيات العربية. قد لا يقبل البعض هذه الحقيقة نتيجة التشــويش الذي «شيطن» الحكومات العراقية التي ســبقت الاحتلال في موقفها من الشيعة العراقيين، لكن هذه هي الحقيقة وليس أدل على ذلك من تشــجيع الحكومة العراقية مرجعية الصدر الثاني المرحوم محمد محمد صادق الصدر (شقيق محمد باقر الصدر الراحل) الذي اغتيل في ما بعد، وحققت الحكومة في الموضوع وأعلنت الجهة المسؤولة عن اغتياله.

راضي في دراسته: «نموذج بديل لعقلانية الدولة في السياسة الخارجية: الحرب العراقية - الإيرانية» إلى دورٍ قام به مع آخرين للرد بالإيجاب على عرض الرئيس أحمد حسن البكر زيارة إيران، وكيف نجحوا في إقناع الخميني الموجود في حينه في قم بكتابة ردّ إيجابي إلا أنه فوجئ بعد عودته إلى طهران بأن ردًا جافًا وخشنًا وغير دبلوماسي أُرسل ردًا على برقية البكر[9]. كذلك في أثناء لقاء جرى بين النائب صدام حسين ووزير الخارجية الإيراني إبراهيم يزدي[10] على هامش اجتماعات قمة عدم الانحياز، إلا أن النيات السيئة لدى بعض الدوائر المهيمنة على القرار الإيراني، وهواجس عدم الثقة من الجانب العراقي أحبطت هذا المسعى[11].

---

(9) للتفاصيل، انظر: G. Hossein Razi, «An Alternative Paradigm to State Rationality in Foreign Policy: The Iran-Iraq War,» *Western Political Quarterly*, vol. 41, no. 4 (December 1988), p. 706.

(10) الدكتور إبراهيم يزدي (ولد عام 1931) وزير الخارجية الإيراني الأسبق في الحكومة الإيرانية الموقتة التي تشكلت بعد سيطرة تحالف رجال الدين والحركة الليبرالية اليسارية الإيرانية على السلطة بعد سقوط الشاه. استقال من منصبه احتجاجًا على اقتحام السفارة الأميركية في طهران. التقى الرئيس العراقي الراحل صدام حسين على هامش مؤتمر قمة عدم الانحياز الذي عُقد في هافانا في أيلول/ سبتمبر 1979 في محاولة لوضع أسس لعلاقة حسن الجوار بين البلدين. اعتُقل يزدي الذي يشغل منصب أمين عام حركة تحرير إيران المعارضة لنظام حكم ولاية الفقيه بعد احتجاجات 2009 على انتخابات الرئاسة التي جاءت بأحمدي نجاد رئيسًا لدورة رئاسية ثانية، وأعيد اعتقاله بعد إطلاق سراحه أكثر من مرة وحكم عليه آخر مرة بالسجن ثماني سنوات.

(11) بيّن كل من المقدمين كارلا توريز وفنسنت زيلينسكي في دراسة مُقدّمة إلى كلية الدفاع الوطني الأميركية، أن القيادة السياسية العراقية بذلت جهدًا مضنيًا في نزع فتيل المشكلات والتهديد مع إيران باتخاذ خطوات تصالحية منذ عام 1979 حيال الثورة الإيرانية والإسلام الشيعي على حد سواء، لكنهما يبيّنان أن كل تلك الخطوات التي عدّداها بالتفصيل لم تلقَ آذانًا صاغية من القيادة الإيرانية الدينية الجديدة التي ظلت =

في هذه الأثناء استمرت التحضيرات التحسبية من الجانب العراقي بإيلاء شأن الحدود العراقية - الإيرانية أهمية أكبر، فرفع مستوى القسم الذي كان يتولّى شأن إيران في مديرية الاستخبارات العسكرية العامة إلى مستوى شعبة، وبدأت حركة دؤوبة في جمع وتمحيص المعلومات عن إيران وتحليل اتجاهاتها، وكذلك نفِّذت سلسلة متوالية من الاستطلاعات التفصيلية لمنطقة الحدود العراقية - الإيرانية، قامت بها مديرية التخطيط المتشكلة حديثًا وفق النتائج التي توصلت إليها اللجنة الدارسة المشكَّلة لدراسة الحدود العراقية الإيرانية(12).

أشار المؤلف في هذا الصدد، إلى مؤتمرٍ لقادة الفيالق والفرق عُقد برئاسة نائب القائد العام عدنان خير الله وبحضور رئيس أركان الجيش وهيئة ركن العمليات والاستخبارات والإدارة لتفحُّص استعداد التشكيلات لعمل محتمل مُقبِل ضد إيران، لو تطور الموقف على الحدود إلى مواجهة. هنا كان الفريق الخزرجيّ

= تنظر إلى صدام كونه علمانيًا. انظر: Karla Torrez and Vincent Difronzo, «The Iran-Iraq War: Exceeding Means,» (National Defense University, National War College, October 2000), pp. 4-5, Quoted in: Efraim Karsh and Inari Rautsi, *Saddam Hussein: A Political Biography* (London: Brassey's, 1991).

(12) تشكلت في دائرة العمليات في وزارة الدفاع لجنة سميت «اللجنة الدارسة» عملت بإشراف نائب القائد العام وزير الدفاع ورئسها الراحل اللواء الركن عدنان أحمد الجبوري، أنيطت باللجنة دراسة الحدود العراقية - الإيرانية البرية والبحرية وإعداد تقدير موقف مفصل عنها. وكان كاتب هذه السطور أحد ثلاثة ضباط ألّفوا الزمرة الدارسة البحرية ضمن اللجنة. تحولت اللجنة الدارسة إلى مديرية التخطيط بعد إنجاز واجبها وعيِّن أحد أعضاء الزمرة البرية مديرًا للتخطيط وهو المرحوم اللواء الركن شاكر وجر الإمارة.

كمـــا هو معهـــود عنه صريحًا ومباشـــرًا فـــي بيان درجة اســـتعداد التشكيلات التي ستُزج في المعركة، والمدة المطلوبة لإعادة تأهيلها وتحويلها من تشـــكيلات منهمكة في عمليات الأمن الداخلي، إلى تشـــكيلات قتالية تتقن المهـــارات التعبوية والعملياتية وأســـاليب المناورة المطلوبة لأحوال حرب حقيقيـــة عصرية. صحيح أنه كان يتحدث عن أحـــوال القطعات المنفتحة لأغـــراض الأمن الداخلي شمال الوطن، وفرقته الســـابعة التي كان يقودها واحدة منها، إلا أن ذلك كان ينطبق بشـــكل أو بآخر على بقية التشكيلات، لأن أغلبية التشـــكيلات القتالية العراقية أُقحمـــت دوريًّا فـــي قضايا مكافحة العصيان في الشمال وعمليات الأمن الداخلي.

ثالثًا: الاعتبار المذهبي/ الطائفي

ظل هذا الاعتبار يطل برأســـه مؤثرًا في مجمل العلاقات بين العراق وإيران، منذ كان العراق جـــزءًا من الدولة الصفوية (1508 – 1534) والفتـــرة الثانية بين عامي 1623 و1638، إذ شـــهدت هذه الفترة اســـتقطابًا مذهبيًّا حادًا رعته الدولة الصفوية ودفعت إليه باعتبارها دولة مذهبية طائفية تعتمد التشـــيّع الإثني عشـــري مذهبًا رســـميًا للدولة، الأمر الذي أثّر في الشرائح المجتمعية غير الشيعية في العراق ودفعها إلى الاستعانة بالقوة السُـــنيّة العظمى الموجودة آنذاك، وهي الدولة العثمانيـــة التي دخلت مرتين لتحرير العراق من الاحتلال الصفوي في غضون قرن من الزمان، كما هو مُبيَّن أعلاه. من هنا نشأ النزاع الحدودي الإيراني – العراقي بين الدولة العثمانية وإيران متلفعًا برداء طائفي مذهبي يدفع كلًا من الطرفين إلى تلبُّس

حالة مذهبية للدفاع عن حيازاته، وهو ما أورث البلدين نزاعًا عنيفًا ما زالت آثــاره ماثلة أمام أعيننا بما نراه يجــري في عراق اليوم من صراعات مؤطّرة بالإطار الطائفي، وهي ليســت أكثر من صراعات سياســية مصلحية في حقيقتها يدفع البلدان ثمنها من دماء أبنائهما، كما حدث في هذه الحرب التي نناقشها في هذا الكتاب[13].

إذا حلّلنا سلوك القيادة العراقية في تراتبياتها القيادية المتوالية نرى أن الحماســة التي كانت تلف ســلوك بعض القيادات الشابة من العسكريين الحزبيين على وجه الخصوص، مصدرها التحسب والتخوف من القيــادة الدينيــة الإيرانية التي هيمنــت على إيران، وحوّلتها بإدراك العراقيين من دولــة جارة يُختلف ويُتفق معها على قضايــا كثيرة، كما كان الحال زمن دولة الشــاه، إلــى دولة مذهبية وضعت العراق (وشــيعته) نصب عينها في ســعي إلى تحقيق حلم إســماعيل الصفوي بالســيطرة على البلد الذي يضمّ رفات ســتة

(13) انظر: علي حســين الوردي: دراســة في طبيعة المجتمــع العراقي: محاولة تمهيدية لدراســة المجتمع العربي الأكبر في ضوء علم الاجتماع الحديث (بغداد: مطبعة العاني، 1965)، ولمحات اجتماعية من تاريخ العــراق الحديث، 6 ج في 8 مج (لندن؛ بيروت: دار الوراق، 2007)، ج 1: من بداية العهد العثماني حتى منتصف القرن التاســع عشر، وج 2: من سنة 1831 إلى سنة 1872، و. Anthony H. Cordesman and Abraham R. Wagner, *The Lessons of Modern War*, 4 vols. (Boulder, Colo.: Westview Press; London: Mansell Pub., 1990-1996), vol. 2: *The Iran-Iraq War*, chap. 2: The Conditions that Shaped the Iran-Iraq War.

وانظر كذلك: وجيه كوثراني، الفقيه والســلطان: جدلية الدين والسياسة في إيران الصفوية، القارســية والدولة العثمانية، ط 2 منقحة ومزيدة (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشــر، 2001)، ص 43-62، وهــي تُمثل وجهــة نظر أخرى في الصــراع الصفوي العثماني تقرب من اعتبار العامل الجيوبوليتيكي دافعًــا إليها، وإن تدثر بالإطار المذهبي للطرفين.

من اثني عشـــر من أئمة المذهـــب الإمامي، وموقـــع غيبة آخرهم المهدي[14]. هنا ترسَّـــخ في الأذهان أن الصـــراع مع هذا النظام هو صراع مبدئي تتقرر ســـيادة العراق وبقاؤه بنتيجتـــه. وهنا بان أيضًا للقيادة العراقية أن الضعف البيِّن في قوام وهيكلية القوات المسلحة الإيرانية ســـيعود بالنفع على أي تعرّض عراقي يســـتهدف إجهاض النيات الإيرانية ضد العراق في المستقبل[15].

يندر أن تجد بلدين متجاورين من دون مطالبات من هذا البلد أو ذاك على قطاعات حدودية، أو على مـــوارد اقتصادية أو مصادر ميـــاه، أو عائدية فئات إثنية لهذا الطـــرف أو ذاك. لكن هذا لا يعني دائمًـــا أن تحل هذه المشـــكلات بالقتال، بل إن القتـــال هو الخيار الثامن الذي يأتي بعد سبعة خيارات متسلسلة لحلّ المنازعات بين الأمم، وهي خيارات أصبح معترفًا بهـــا في علم العلاقات الدولية. يمكننـــا بعد إدراج هذه الوســـائل التعرف: هل بذل هـــذان البلدان الجاران جهدًا أم لا للجوء إلى أيٍّ من هذه الأســـاليب، على الرغم من أنها كانت متاحة لهما، بل تبرعت أكثر من جهة ببذل وســـاطتها ومساعيها الحميدة للوصول إلى حل يرضي الطرفين.

كان بإمكان العـــراق وإيران اللجوء إلـــى المفاوضات الثنائية أولًا، فإن تعذّرت فإلى الوســـاطة ثم التحقيق والتوفيق والتحكيم،

(14) هم كل من الإمام علي بن أبي طالب والحســـين وموســـى الكاظم ومحمد الجواد وعلي الهادي والحســـن العســـكري. ويثوي في المدينة المنـــورة كل من الإمام الحســـن بن علي وعلي بن الحســـين ومحمد بن علـــي وجعفر بن محمـــد. ويثوي في خراسان بإيران علي بن موسى.

(15) Cordesman and Wagner, vol. 2: *The Iran-Iraq War*, pp. 7-8.

وعرض مشكلتهما على محكمة العدل الدولية للحصول على حكم يتعهّدان بالتزامه.

كان هنالك جانب رافض دائمًا لأيٍّ من هذه الوســائل. وكي لا نُتهم بأننــا نحمّل إيران دائمًا المســؤولية، ننصح المتتبع بالعودة إلى جهد بذلته الجزائر وتوقف عند إســقاط طائرة وزير الخارجية الجزائــري الراحل محمد الصديق بن يحيى فــي 3 حزيران/ يونيو 1982 على الحدود الإيرانية - التركية وهو في طريقه إلى طهران، بعد أن زار بغداد بهدف الوساطة بين البلدين المتحاربين. والمراقب لسجل الوساطات ومحاولات التسوية بين البلدين يجد أنها توقفت تقريبًا في غضون السنوات الأولى من الصراع، بعد أن تأكد للجهات القائمة بها عدم توافر الإرادة السياسية لدى الطرفين لإنهائه. يمكن أن يســتنتج المتابع المحايد بسهولة أن الطرف الذي كان يصر على عدم إنهاء الحرب هو إيران ممثّلة بشخص الإمام الخميني.

الفصل الثالث

الحرب العراقية - الإيرانية
المقدمات والنتائج

اندلعت الحرب في فترة يحسبها العراق من 4 أيلول/ سبتمبر 1980، باعتبار هذا التاريخ هو الموعد المثبت لبدء إيران التعرض للأرض العراقية مدنًا وبلدات ومشاريع، وهو موعد ثبته العراق بمذكرات رسمية أودعتها الخارجية العراقية الجانب الإيراني دبلوماسيًا وأُشعرت بها الأمم المتحدة. أما إيران فلا تعدُّ فاعلياتها في هذه الفترة عدوانًا على العراق، على الرغم من أنها تقع تحت التعريف الدولي المتفق عليه للعدوان في قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة (3314XXIX) المتخَذ في جلستها المرقمة 2319 في 14 كانون الأول/ ديسمبر 1974. يقول منطوق القرار في تعريف العدوان الوارد في المادة (1): «العدوان هو استعمال القوة المسلحة من جانب دولة ما ضد سيادة دولة أخرى أو سلامتها الإقليمية أو استقلالها السياسي، أو بأي صورة أخرى تتنافى مع ميثاق الأمم المتحدة، وفقًا لنص هذا التعريف».

وفي تصنيف الأفعال التي تُعد عدوانًا أوضحت الفقرة (ب) من القرار أن القصف المدفعي يُعد أحد أشكال العدوان[1].

شن العراق تعرّضه الاستباقي في 22 أيلول/ سبتمبر في

(1) انظر الموقع الإلكتروني للجمعية العامة للأمم المتحدة: <www.un.org>.

توقيت اختير لتحقيق المباغتة، إذ انطلقت طائرات القوة الجوية العراقية لتُحقق ضربة مفاجئة للقواعد الجوية الإيرانية الموجودة في المديين القريب والمتوسط من جبهة العمليات التي ستنشأ اعتبارًا من اليوم المذكور[2]. نجد هنا مماهاة بكلٍ من الضربة الأولى التي تحققت على الجهد الجوي الإسرائيلي في جبهة القناة، والتي نفّذها سربا هوكر هنتر عراقيان موضوعان بإمرة القوات المسلحة المصرية يوم 6 تشرين الأول/ أكتوبر 1973 (العاشر من رمضان)، والضربة الجوية الإسرائيلية الاستباقية يوم 6 حزيران/ يونيو 1967. ثم ابتدأ الاختراق العراقي لإيران من ثلاثة قواطع عمليات أهمها القاطع الجنوبي الذي استهدف عربستان بعملية خرق عميق نفّذتها خمس فرق مدرعة ومشاة آلية من ثلاثة محاور مستهدفة مدنها الكبرى: المحمرة وعبادان والأحواز والفلاحية. ونفِّذ خرق موازٍ للجبهة في القاطع المقابل لمحافظة ميسان (العمارة)، مستهدفًا مدينة ديزفول القاعدة العسكرية والصناعية المهمة، والشوش، فضلًا عن اختراق آخر نفِّذ في القاطع الأوسط من ساحة العمليات مقابل بغداد، وهو القاطع الذي بدأ العدوان الإيراني منه، لذلك وجدت القيادة العراقية أهمية لإبعاد الأذى الإيراني، فاستهدفت مدن قصر شيرين

(2) يبيِّن ج. حسين راضي أن الخميني نفسه فوجئ بالاجتياح العراقي، لذلك اضطر إلى تعديل خطابه وبدأ بالإشادة بالجيش وأطلق سراح الضباط المعتقلين من جيش الشاه، بعد أن كانت العمليات جارية بتصفية الكادر الضباطي بالإعدام والسجن من جهة، وتدمير التقانة العسكرية الأميركية من جهة أخرى. انظر: G. Hossein Razi, «An Alternative Paradigm to State Rationality in Foreign Policy: The Iran-Iraq War,» *Western Political Quarterly*, vol. 41, no. 4 (December 1988), p. 711.

وكيلان غرب وسـربيل زهـاب[3]. وحققت القطعـات الخارقة أهدافها تقريبًا في كل القواطع، وفرضت سـيطرتها على قطاعات مهمة من الأرض الإيرانية المقابلة للعراق التي يخشـى أن تنطلق منها عمليات تعرضية إيرانية ضد العراق[4].

هل كان ما قام به العراق في 22 أيلول/ سبتمبر 1980 استباقًا أم حربًا وقائية أم حربًا إجهاضية أم حربًا دفاعية؟

للإجابة عن هذا التسـاؤل لا بدّ من ضبط التعابير والمفاهيم الاصطلاحية الواردة أعلاه. لنبدأ بالاسـتباق (Preemption). يُعرّف قاموس المصطلحـات العسـكرية الأميركي الصـادر عن وزارة الدفاع الأميركية الهجوم الاسـتباقي بأنه: الهجوم الذي يُشنّ على أساس دليل لا شكّ فيه بأن هجوم العدو أصبح أكيدًا ووشيكًا[5].

مـرّت الحرب العراقيـة - الإيرانيـة (1980 - 1988) بأربع مراحل متميّزة لكل منها سماتها، يمكننا إجمالها بما يلي:

---

(3) يُعد مضيق بايطاق بوابة العراق الشرقية، ومنذ شهد العراق غزوات الأغراب، كان هذا هو الممر الذي يسلكه الغزاة للقدوم والدخول إلى سهل وادي الرافدين. لذلك نجد أن مسـك هذا المضيق كان أحد أهداف الخلفاء العباسيين المتأخّرين عندما طردوا المتسلطين على بغداد، وأعادوا إحكام سيطرتهم على العراق.

(4) Stephen C. Pelletiere and Douglas V. Johnson, *Lessons Learned: The Iran-Iraq War* (Carlisle Barracks, Pa.: Strategic Studies Institute, U.S. Army War College, 1991), pp. 7-11.

(5) Preemptive Attack Is: An Attack Initiated on the Basis of Incontrovertible Evidence that an Enemy Attack Is Imminent, see: *Department of Defense Dictionary of Military and Associated Terms*, Joint Publication; 1-02 ([Washington, DC: Government Reprints Press], 1911), p. 288.

- المرحلة الأولى: مرحلة الرد على العدوان وأخذ زمام المبادأة

بدأت هذه المرحلــة اعتبارًا من 22 أيلول/ ســبتمبر 1980 بالتعرض العراقي الذي اســتهدف الوصول إلى مناطق في العمق الإيراني تكون مؤثرة اســتراتيجيًا كي تُجبَر إيــران على الجلوس للتفاوض وحل المشكلات ســلميًا. وحقق العراق خرقًا ذا مغزى في القواطع الثلاث للعمليات: القاطــع الجنوبي حيث كانت قوة الخرق الرئيســة التي اســتهدفت القاطع البــري المقابل للبصرة، ووصلــت طلائع القــوات العراقية، حيــن دخلت الفرقــة الآلية الخامسة إلى مشــارف الأحواز، واجتازت الفرقة المدرعة الثالثة الطاهري على نهر الكارون، وأحكمــت الحصار على عبادان من الجنوب الشــرقي وقطعت طرق مواصلاتها مــع المحمرة (خرم شــهر) - عبادان على شــط العرب. وكان اندفاع مدرّع من منطقة الفكة قد نجح في اجتياز المانع الرملي فــي منطقة تلال الله أكبر فواصل طريقــة باتجاه الأحواز عــن طريق البســيتين - الفلاحية (سوســنكرد) - كوت الهواشــم التي وصلــت الفرقة التاســعة المدرعة إلى مشارفها.

في قاطع الفيلــق الرابع نجحــت الفرقة العاشــرة في عبور نهر الطيــب والدراجي على الحــدود واندفعت باتجــاه ديزفول المدينــة المهمة على نهــر الكرخة، ووصلت إلــى الضفة القريبة من النهر بعــد أن احتلّت إمام زادة عباس فــي طريقها، ووصلت الفرقة الآلية الأولى إلى الشــوش على نهر الكرخة العمية، وبهذا تكون القوات العراقية قد اســتوعبت الفضاء الذي يفصل الحدود

العراقية - الإيرانية عـن نهري الكرخة والكرخـة العمية. أما في القاطع الأوسـط الذي كان هدف العدوان الإيراني في 4 أيلول/ سـبتمبر1980 فاندفعت الفرقة المدرعة السادسـة واحتلّت قصر شـيرين، ثم اندفعت إلى سـري بول زهاب علـى مدخل مضيق باي طاق الاستراتيجي في سلسـلة كرند التي شكلت على الدوام المدخـل إلى العـراق. واندفعت مـن مندلي تشـكيلات أخرى احتلّت سومار وكيلان غرب.

بعد إنجاز القوات المسلحة العراقية هذه الصفحة من الحرب بادر العراق إلى بيان عدم وجود أطماع لديه في الأراضي الإيرانية، وأن كل ما يطمح فيه هو الجلوس والتفاوض مع إيران لوضع أسس لعلاقة تفاهم وحسـن جوار بين الطرفين[6]، فأعلن قبول قرار وقف إطلاق النار الصادر عن مجلس الأمن في جلسـته 224 تحت رقم 479 في 28 أيلول/ سبتمبر 1980[7].

---

(6) بادر العراق فضلًا عن قبوله قرار وقف إطلاق النار الذي يدعو إلى انسحاب قوات البلدين إلى حدودهما الدولية، إلى قبول الوساطات كافة كلجنة المساعي الحميدة التي شكلتها الأمم المتحدة برئاسة السـفير الكويتي ومبادرة الأمين العام للأمم المتحدة كورت فالدهايم ومبادرة مؤتمر القمة الإسلامية والوساطة التي رئسها الرئيس الباكستاني ضياء الحق، ووسـاطة الرئيس الراحل عرفات وغير ذلك كثير. للتفاصيل انظر: العراق، وزارة الخارجية، اللجنة الاستشارية، **النزاع العراقي الإيراني: ملف وثائقي** (بغداد: اللجنة الاستشارية، 1981).

(7) <http//:www.UNSCLresolutionsL479/1980>.

كما أصـدرت الأمم المتحدة كتابًا تحت عنوان **الحالة بيـن العراق وإيران** يمكن الاطلاع فيه على سلسـلة القرارات الدوليـة التي رفضتها إيران حتـى القرار 578 لعام 1987 الذي اضطرت إلى قبوله بعد تحطيم آلتها العسـكرية في معارك التحرير الكبرى التي نتناولها في هذا الكتاب.

- المرحلة الثانية: الهجوم الإيراني المقابل وتحوّل العراق إلى الدفاع

كانت معركتا الخفاجية (سوسنكرد) والبسيتين في مفتتح عام 1981 علامة تحوّل إيران إلى الهجوم بتنفيذ قواتها عملية هجوم مقابل بالدروع؛ حيث اشتركت نحو 300 دبابة، أي ما يعادل لواءين مدرعين في عملية هجوم مقابل عنيف استبسلت القوات العراقية في صده واستماتت، حتى تحملت الفرقة المدرعة التاسعة خسائر جسيمة وكادت أن تشطب من القوة القتالية، إلا أن نتيجة هذه المعركة حسمها العراقيون بهجوم مقابل وبمعركة مهارشة بالدبابات نفّذها اللواء المدرع العاشر بقيادة العميد الركن (آنذاك) محمود شكر شاهين وتم تدمير التعرض الإيراني. تحوّلت القوات العراقية منذئذٍ إلى الدفاع وفقدت المبادأة. ومن الملاحظ أن العراقيين حققوا هنا خطة مخادعة ممتازة نفّذها القائد العراقي بالتظاهر بالانسحاب أمام رتل الدبابات الإيراني المتقدّم، وفجأة وبمناورة ذكية أطبق اللواء المدرع العاشر المجهز بدبابات (T-72) السوفياتية الحديثة، بحركة مناورة ضرب الجناحين، على الفرقة المدرعة الإيرانية وأوقعها في كمين، فتم تدمير زهرة القوات الإيرانية فيه ولم ينجُ إلا من اختار الفرار[8]. تصلح هذه المعركة لتكون قتالاً مثاليًا لمعارك الدروع في صفحتي المهارشة والدفاع السيّار، وكان القائد العراقي ماهرًا في تنفيذ مناورة الالتفاف من الجناحين والإطباق على العدو كما

---

(8) Pelletiere and Johnson, p. 9.

أشارت الدراسة المعمقة المذكورة في الهامش (8). ومن دروس هذه المعركة المهمة أن الجيـش الإيراني النظامي فقدَ قدرته على القرار في الجبهة بعد هذه المعركة، وتصاعد مُذّاك دور المعممين ورجال الدين الذين لجـأوا إلى تثوير المتطوِّعيـن غير النظاميين (الباسـيج) وتجييشـهم وزجهم، بعد طقوس شـيعية إيرانية، في رحـى المعركة التي حصدت مئات الألـوف منهم من دون اعتبار لأرواحهم وأسرهم، في قتال عبثي كان يمكن التوصل إلى تسوية له بعد أن وافق العراق على المفاوضـات لحلّ النزاع، وتطوعت أكثر من جهة محايدة للتوسط بين الطرفين.

بدأ منذ ذلـك الحين مـا دعـي بالهجمات بـ «الموجات البشرية» التي استهدفت إشـباع النيران الدفاعية بهجمات موجات الباسـيج المتوالية المشـكَّلة حتى من أطفال أسـرَهم العراقيون وهم فـي ميعة الصبا والفتـوة، وكان أول اسـتخدام واضح لهذه التعبئة (الهجوم بموجات بشـرية متتالية) في معركة البسـيتين في 19 تشـرين الثاني/نوفمبر 1981، حين فاجأت موجات الباسيج الإيرانيـة الهاجمة العراقيين المدافعيـن وأخذتهم على حين غرة، فارتبك القـادة التعبويون العراقيون وبادروا إلـى زج احتياطاتهم في وقـت مبكر، الأمر الذي اسـتنزف وأشـبع الخطـة الدفاعية العراقيـة[9]، لكن ما حصل فـي الخفاجية والبسـيتين لم يكن إلّا مؤشـرًا أضاء بقوة، دافعًا العـراق إلى الانكفاء إلـى حالة الدفاع وفقدان المبادأة والتخلي عنها، مع أن المبادأة كانت السـبب، إلى

(9) المصدر نفسه، ص 10.

جانب عوامل أخرى، في اندفاع قواته عبر الحدود والإمساك بهذه الفســح الحاســمة التأثير، كما ســنرى في ما بعد، لكن المعضلة هنا، أن الجندي العراقي ســيحفر خنادقه، ويشــيّد تحصيناته على أرض لا تعود إليه، على أرض غير عراقية، أي على أرض محتلّة. لا أعتقد أن غير الجندي سيتحســس ثقلَ الوازع الأخلاقي الذي يجعله يحتل أرضًا لا تعود إليه، بعد اهتــزاز المبرر لاحتلالها في الوقت نفســه، فما بالك بالدفاع عنها؟ ســتصاب هنا المعنويات بأذى شــديد ويتلاشــى نبل المقصد، بأن الجيش ما اندفع هكذا وبهذا العمق إلا دفاعًا عــن قضية نبيلة هدفهــا أولًا وأخيرًا إبعاد العدوان عن الديار، وقطع الطريق على الشــر لئلا تتاح له الفرصة ويستشري في أرجاء الوطن، كما سيحصل في ما بعد عندما تحوّل العراق أرضًا محتلّة. مــن هنا بدأت معنويات وإرادة القتال تتأكّل، بدأنا نشعر بأن الجندي، بل حتى القائد بدأ يشعر بعظم المسؤولية التي تقــع على عاتقه، ولــو بمنظورين مختلفيــن، فالجندي يرى أنه يدافع عن أرض محتلة ســيكون ثمنها دمه ومســتقبل أولاده، وهذا يضع علــى كاهله ثقلًا معنويًا كبيرًا ومســؤولية تهتز نفســه ومعنوياته من ثقلها، وسيتســاءل هل ســيطيع الأوامــر وإلى أي مدى، أم ســيهرب من المواجهة أم سيستسلم للعدو؟ كان الصراع بين العاملين المشــار إليهمــا؛ الأول المتمثــل بالانضباط وتنفيذ الأوامر الــذي يعني الصمود حتى الاستشــهاد، والثاني أي الفرار من ساحة المعركة، وما سيجلبه على نفسه من عقوبة قد تصل إلى الإعدام، وتحمُّل أبنائه وعائلته عار الفرار، أو الاستســلام للعدو المتقدّم المندفع وتحمُّل ذل الأسر على عار الفرار، سببًا في العدد

الكبير من الأسرى العراقيين، خصوصًا بعد تعرّض العدو لمناطق الطاهري والمحمرة (خرمشــهر) والشوش والفكة وقاطع ديزفول بشــكل واسع النطاق. وســتكون مســؤولية الضابط الآمر/ القائد أكبر، إذ ســيتحمل وحده مســؤولية الإخفاق وسيرى أن في رقبته مسؤولية كبرى هي المحافظة على المواضع التي يحتلها بوحداته والدفاع والقتال عنها وعليها حتى الموت وإلا لاحقه عار الهزيمة التي قد يدفع حياته ثمنًا لهــا، ربما بغير مبرر علمي ومنطقي، وفي حالة الشــهيد اللواء الركن برهــان خليل التي أشــار إليها الفريق الخزرجي في مذكراته برهان ساطع على هذا.

رأينا ابتــداءً من هذه المرحلــة مزايدات البعــض في دوائر معينة مــن الحزب والأمن العســكري على حرَفيــة وقتالية القادة والآمريــن، ونتيجة وشــايات محــددة دفع بعض ألمــع الضباط العراقيين أرواحهــم ثمنًا لروايات ثبت في مــا بعد عدم صحتها، الأمر الــذي حدا القيادة إلى إخراج تســوية أطلقــت على هؤلاء المعدوميــن تعبير «شــهيد الغضب». وهو غضــب كان ينبغي ألا يصل إلى حد إنهاء حياة فرد يتحمل مســؤولية القتال والمواجهة من دون تمحيص معمق. نعم، يســتحق بعض المتخاذلين العقاب الصارم إذا ما تمخّض عن تصرفــه أو ضعف قيادته أو عدم اتباعه الســياقات العســكرية في التعامل مع الموقف، انهيــار الدفاعات أو فشل عمليات التعرض. وهو أســلوب معمول به في الحروب وواحد من أوجهها القبيحة، لكــن حتى هذه الحالة عندما تحصل يتحمل من اختار شخصًا غير مناســب ليقود الرجال، من دون أن يكون متمتعًا برجولتهم ولا بحرَفية القيادة، مســؤوليةً غير مباشرة

في وضعه رجلًا غير مناســب وغير أهلٍ للقيادة على رأس تشكيل حربي، يشغل مهمة كبيرة وخطرة ضمن سلسلة المسؤوليات التي تشمل الموقف الحربي بشكل عام.

هنا كان من عُيِّن لقيادة لواء مشــاة في عملية الهجوم المقابل لاســتعادة الفاو في عام 1986 من دون أن يكون كفيًّا لقيادة هذا اللواء، وكانــت النتيجة أن تشــتت اللواء ودفع الآمــر حياته ثمنًا لذلك.

كان الخزرجيّ ينافح ويدافع عن مرؤوســيه ممن وضعوا في موقف كهذا على رغمهم، ورأيناه كيــف تدخَّل لإنقاذ حياة العميد الركن برهان خليــل، وكتب إلى القائد العام رســالة لم تصل إليه، وسبق الســيف العذل، وذهب برهان تبكيه أعيننا نحن الذين عرفناه وخبرناه، لكن الخزرجــيّ نجح في حالات أخرى فــي إنقاذ حياة مرؤوسيه وكنت شــاهدًا على حالتين منهما عندما كان قائدًا للفيلق الأول، وكنت أنا في تلك الليلة الضابط الركن المناوب في رئاســة الأركان العامــة، عندما طلب التدخّل لدى القائــد العام للعفو عن أحد آمري أفواج اللواء 515 في قاطع جوارتة، المحكوم بالإعدام لتخاذله وانســحابه من دون أمر، بعد أن تأكد أن الضابط المذكور قد انسحب بناء على أوامر آمر لوائه الذي أكد ذلك وهو في لحظة الإعدام. وأشــار الخزرجيّ إلى حالة أخرى مشــابهة في مذكراته عندما تدخَّل أيضًا لإنقاذ ضابط محكوم بالحكم نفسه لحظة التنفيذ بعد أن تأكد من سلامة موقفه.

- المرحلة الثالثة: الانسحاب إلى الحدود الدولية والدفاع عنها

تفاقم وضع القوات المسلحة العراقية في الأراضي الإيرانية نتيجة الهجوم المقابل الإيراني على القطعات العراقية التي انتقلت إلى الدفاع بعد تلاشي زخم هجومها وتوقفها على مشارف مدن رئيسة. فشلت في هذه المرحلة عملية السيطرة على عبادان، ولم يُحقق عبور ترعة بهمنشير (فرع نهر الكارون الذي يصبُّ في الخليج العربي) أهدافه بالإطباق على عبادان، ولم تجرِ عملية عبور لشط العرب باتجاه عبادان من الضفة العراقية، لذلك مُنيت الفرقة التي حققت عبور بهمنشير وأطبقت على عبادان من جهة الشرق بخسائر كبيرة، بعد أن تلاشى زخم هجومها واضطرت إلى التوقف، سنرى كيف ناقش الخزرجي هذه العملية وبيَّن نقاط ضعفها.

كان الفيلق الثالث الذي يقود الجبهة في هذا القاطع قد أعد دراسة تحليلية لساحة العمليات بإشراف القائد اللواء الركن صلاح عارف القاضي، وأرسلها إلى القيادة العامة مع مقترحات محددة، أهمها إخلاء الأراضي الإيرانية والدفاع عن الحدود العراقية على الحدود، الأمر الذي سيتيح تقصير خطوط الجبهة وتوفير قطعات يمكن المباشرة في إعادة تنظيمها. كما كان إجراءٌ مثل هذا، لو تم، سيربك ترتيبات العدو وسيتسبب في إطالة خطوط مواصلاته، وكان سيجبره على إعادة التكيف مع الوضع الجديد الذي فُرض عليه. كل هذا سيصب في مصلحة القوات العراقية التي كانت بحاجة ماسة إلى إعادة التنظيم، وإعادة شحذ

المعنويات التي بدأت تتأكّل نتيجة الدفـاع عن أراضٍ معادية من دون مبرر معنوي مقنع.

يلحظ المشـير محمد عبد الحليم أبو غزالة في كتابه الحرب العراقيـة - الإيرانيـة، أن حرية الحركـة والقدرة علـى المناورة والتنقل باختيار الأهداف على طـول الجبهة من جانب الإيرانيين كانت بسبب سلبية المخطّط والقائد العراقي في اتخاذ الإجراءات اللازمة لمنع العدو من التحشد، ومنعه من الاحتفاظ بالمبادأة[10]. ما جاء به المشير أبو غزالة ليس جديدًا، بل كان متداولًا في دوائر تخطيطية وقيادية عراقية متعددة، إلا أن سطوة المدرسة العسكرية التقليدية على مهام التخطيط والعمليات كانت شـديدة إلى الحد الذي نتج منه بطء في ردة الفعل، وفي محاولة سد الثغرة بالركون إلى الدفاع العـزوم، وهو ما تحقق فعلًا. فضـلًا عن أن مجريات الأمور تثبـت أن الإيرانييـن لم يتمكّنـوا في هـذه المرحلة من السيطرة على أراضٍ عراقية ذات قيمة تعبوية أو استراتيجية فائقة، وأيّدت كتابات غربية متعددة وجهة النظر هذه، وبالأخص كتابات كلية الحرب الأميركية المشـار إليها في هـذا التقديم في أكثر من مجـال.

ما يمكن الإشـارة إليه هنا أنه كان على المخطـط العراقي أن يتبصر ويضع صفحات متتالية لحرب نشـبت علـى حدود البلدين،

---

(10) انظـر: محمد عبد الحليم أبـو غزالة، الحرب العراقيـة الإيرانية، 1980-1988 ([د. م.: د. ن.]، 1993)، ص 106-139.

وحقق العراق فيها خرقًا واضحًا لدفاعات العدو في مناطق مهمة من الجبهة. كان من المفروض أن يُقرر مسـبقًا أي مدن يجب احتلالها والقتال دفاعًا عنها، وأي مناطق ذات أهمية تعبوية واسـتراتيجية كان يجب توجيه الجهد إليها ومسكها وعدم التخلي عنها.

عندما نناقش هذه الأمور يتضح لنا أن ساحة القتال الرئيسة هي البصرة، ومن هنا سـتُعطى صدقية للدفاع عنها بتنظيف المقتربات المعاديـة التي تهددها، ومن هنا سـيكون احتـلال جزيرة الخضر (عبادان) مفيدًا، بل كان يجب أن يكون الهدف الأول الذي تتوخّاه القوات العراقية، وكان سيتحقق بخسائر أقل من تلك التي تحمّلتها القوات العراقية في ما بعـد. كان احتلال جزيـرة الخضر (جزيرة عبادان) سـيحقق للجانب العراقي هدفًا مهمًّا وتساوميًا من أهداف الحرب، لأنه كان سيحكم السيطرة على ضفتي شط العرب ويعيده نهرًا عراقيًا خالصًـا، بعد أن أُجبر العراق علـى التخلي عن نصف مجراه في اتفاقية 1975 بين العراق وإيران التي دُفع بها شط العرب ثمنًا لسحب إيران تأييدها وإسنادها التمرّد الكردي.

لو طهّر العراقيـون جزيرة عبادان لاسـتندوا إلى خط دفاعي متين تشكّله ترعة بهمنشـير، ولأسندوا عمق دفاعاتهم على الأرض العراقية عبر شـط العرب الذي كان بإمكان هندسة الجيش العراقي إنشاء عدد من الجسـور والمعابر عليه، كما فعل الإيرانيون بعدها، عندما سـيطروا علـى الفاو في عـام 1986، بل إن هـذه العملية الإيرانية لم يكن يقيّض لها أن تتحقق، لو كان للعراقيين وجود على

الضفة البعيدة من شط العرب مع عدم وجود موطئ قدم إيرانية فيها وفي جزيرة الخضر (عبادان).

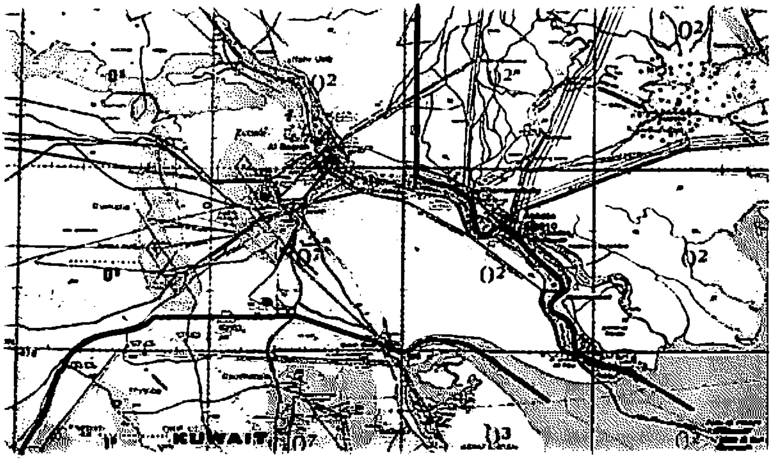
على الرغم من ذلك، ومـع أن الخلافات الحدودية تُعد من أهم أسـباب النزاع بين الدول، كان يمكـن أن يقود تغليب علاقة حسـن الجوار والنيات الحسـنة، إلى إيجاد حل للنزاع الحدودي العراقي - الإيراني مهمـا كانت تعقيداته، كمـا حدث على وجه ما في أثناء الحقبة الملكية فـي العراق. حينها كانت العلاقات بين البلدين أكثر دفئًا منذ الزيارة التي قام بها مؤسـس العراق الحديث الملك فيصل الأول إلى طهران، واستقباله بحفاوة من جانب شاه إيران مؤسـس الأسـرة البهلوية رضا شـاه، ثم عقد معاهدة سعد آباد (في عام 1936) مع كلٍّ من إيران وأفغانسـتان وتركيا، مرورًا باتفاقية 1937 لتنظيم الملاحة في شـط العرب، علاوة على عقد البلدين معاهدة حسـن الجـوار خلال زيـارة الوصي على عرش العراق الأمير عبد الإله إلى إيران في عام 1949، إذ تعهّد الطرفان بالتوصل إلى تسـويات للقضايا الحدودية المعلّقة بينهما، وصولًا إلى انضمـام البلدين إلى حلـف بغداد في عـام 1955. وفي ما يخصّ مشكلة شط العرب توصّل الطرفان في عام 1957 إلى آلية إدارة مشتركة للملاحة في الشط، وإلى إحالة موضوع شط العرب على وسيط سويدي يتولّى دراسته وتقديم مقترحاته للطرفين[11].

---

(11) Efraim Karsh, «Geopolitical Determinism: The Origins of the Iran-Iraq War,» *Middle East Journal*, vol. 44, no. 2 (Spring 1990), p. 262, and Rouhollah K. Ramazani, *Iran's Foreign Policy, 1941-1973; a Study of Foreign Policy in Modernizing Nations* (Charlottesville: University Press of Virginia, [1975]), p. 402.

الخريطة (3 - 1)

موقع جزيرة الخضر (عبادان) وخطورتها الاستراتيجية
التي كان يجب أن تكون الهدف الأول للقوات العراقية



الفصل الرابع

إخفاقات ونكسات

التحشـــد (Concentration) والمبـــادأة (Initiative) مبدآن خطران ومهمان من مبادئ الحرب حصل فـــي تطبيقهما خلل من الجانب العراقي، بســبب التردد والتحســب وقلة التدريب، نتيجة الخسائر التي مُنيت بها القوات العراقية طوال سنتين من القتال، لكن العراق نجح بعد انســحابه من الأراضي الإيرانية في أن يؤمّن التحشد في الأمكنة الدفاعية على طول الجبهة، ونجح في بناء دفاع قويٍّ، حيث اســتفاد من الموانع الطبيعية مثل الجداول والتـــرع والبحيرات في إســناد أجنحته الدفاعية عليها. وكان جهد هندسة الميدان العراقي مســترعيًا النظر في تفاعله مع تطور التخطيط الدفاعي، وأُنشــئت سلسلة من الموانع والمقتربات والطرق والجسور التي سهّلت أمور التنقل الميداني في ســاحة العمليات وما وراءها. ولمّا تبيّن في ما بعد أن هذا الجهد لم يعد كافيًا لتلبية متطلبات الجبهة، أسعف جهد الدولة المدني القوات المسلحة في تأمين متطلباتها الهندسية. كان تسخير الجهد المدني الهندسي اختبارًا ناجحًا لخطة التعبئة والنفير التي تهدف إلى توجيــه جهد الدولة لخدمة جهد الدولة الحربي في أثناء النفير والتعبئة.

كان لفقدان العراق المبادأة مــن وجهة نظرنا مبررات منطقية، لعل في مقدّمها تصوّر قد يكون اســتقر في ذهن القيادة العراقية بأن

العالم سيُبادر فورًا إلى إيجاد حل يعيد إلى العراق شط العرب وينهي القتال لعدم قدرته على تحمّل انقطاع الإنتاج النفطي للعراق وإيران، فيما لو استمرت الحرب كما سبق وأسلفنا، لكن ما حصل هو أن العالم لم يستطع ضبط إيقاع الصراع ووضع نهاية له، وكأن استمرار هذه الحرب هو هدفٌ بحد ذاته. هنا كان على القيادة العراقية أن تبني خططها لا على ما تتمنّاه، بل على ما يمكن أن يحصل. هكذا ركنت القيادة العراقية إلى الدفاع على أرض العدو، وبهذا تخلت عن المبادأة وتلقفها العدو الذي ظل يمسك بها ويعيد الإمساك بها من خلال سلسلة من العمليات التي أطلق عليها مسميات ذات صفة عقيدية دينية، بل شيعية أحيانًا. بناء على ذلك بدأت عمليات «مسلم بن عقيل» على مندلي، وعمليات «والفجر» المتسلسلة على شمال العراق، و«النصر»، و«كربلاء» بعملياتها المتسلسلة. فقدت إيران المبادرة نهائيًا في ختام هذه العمليات وتحوّلت المبادأة إلى العراق عبر سلسلة من الإجراءات التي عالجت الموقف المتردي للقطعات العراقية في الجبهة، وتعرّضها لكلٍ من الاستنزاف والانهاك المتصاعد مع إطالة مدة العمليات، فضلًا عن استهداف المدن والمدنيين كأهدافٍ عسكرية بغية تدمير معنويات العراقيين ودفعهم إلى التمرّد والعصيان من جهة، والتأثير في معنويات المقاتل وإشعاره بعدم أمانه هو في الجبهة، كما بعدم تمتع عائلته وأهله بالأمن في الداخل، نتيجة حرب المدن. كانت مدينة البصرة طوال مدة الحرب مدينة جبهة تمسّك بها سكانها ولم يُخلوها ودافعوا عنها بمعنويات عالية حتى انتهاء الحرب.

كان الاستنزاف المتبادل أحد أهداف الطرفين من المعارك

العنيفة، حيث هدف كل منهما إلى اســتغلال كل ما تتيحه له عملية التحشــيد المادي والمعنــوي وتحالفاته الدولية ومســتوى تقنيات القتال المتاحة له. كان العراق قد أعلن أن العالم كله ســاحته، عدا الكيان الصهيونــي للحصول على حاجاته، هكــذا دخلت البرازيل والأرجنتين والصين وتشــيلي حتــى جنوب أفريقيــا ضمن زبائنه المورّدين. وحده، الكيان الصهيوني لم يكن من مورديه.

اختــارت إيــران مورّديها ومن ضمنهــم «الشــيطان الأكبر» وإســرائيل[1]. وقيّض للتعاون الإيراني - الإســرائيلي - الأميركي أن يفتضح عندما كُشــف الســتار عن عملية «إيــران كونترا» التي نظّمها المقدّم أوليفر (إيلي نورث) المســؤول عن العمليات السريّة غير القانونيــة (Clandestine Operations) من هيئة ركن مجلس الأمن القومــي الأميركي، والتي هدفت إلى الاســتفادة مــن عملية إمداد إيران بالعتاد (الذخيرة)، والمــواد الاحتياطية (قطع الغيار) وبعض الأســلحة، لتحصيل وفر مالي تمــوّل بموجبه عمليــات حركات الكونترا التي منع تشريع الكونغرس المسمى (تعديل بولون) (Bolan Amendment) تسليحها أو تمويلها في الســلفادور، لشيوع انتهاكاتها حقوق الإنســان. وعند بروز الحاجة إلى تســليح إيران، للمساعدة في تحرير رهينة أميركية احتجزها في لبنان عملاء إيران، ولأهداف

(1) تعد الذرائعية (البراغماتية) إحدى وسائل السياسة الخارجية الإيرانية منذ أقدم العصور. وقد رصدها البروفســور من أصل إيراني (R. K. Ramazani) صاحب الكتابات المتخصصة في السياســة الخارجية الإيرانيــة في مختلف الحقب التاريخية. له دراســة مميزة عن الأيديولوجيا والبراغماتية في السياسة الخارجية الإيرانية. انظر: Rouhollah K. Ramazani, «Ideology and Pragmatism in Iran's Foreign Policy,» *Middle East Journal*, vol. 58, no. 4 (Autumn 2004), pp. 549 - 559.

أخرى نعتقد أن مـن ضمنها إطالة أمد الحرب لاسـتنزاف البلدين المتحاربين، تـم ترتيب هذه الصفقات السـرية عبر تاجر من أصل إيراني[2].

في هذه المرحلة حاولت إيران بجهد مركّز وعبر سلسـلة من العمليات المنتشـرة على طول الجبهة العراقية - الإيرانية اختراق المنظومـة الدفاعيـة العراقية، خصوصًـا من أوهنهـا دفاعًا، كما حصل بعد اجتيـاح الإيرانيين هور الحويـزة وعبورهم هذا المانع المائي الاسـتراتيجي الذي لا يتيـح لأيٍّ كان الحركة عبره بحرية. نجحت إيـران إذًا في عبور هـور الحويزة، والنفـوذ إلى الطريق العام لبغداد - البصرة جنوب قلعة صالـح (انظر خريطة العراق)، واندفعت بعد ذلك بعملية إحاطة غير ناجحة، كان هدفها الاندفاع إلى البصرة من الغرب وتطويقهـا واحتلالها (كان الهدف الإيراني طوال مدة الحرب احتلال البصرة وحرمان العراق من هذه المنطقة ذات الأهمية الاستراتيجية الحيوية)، وهو هدف يدل على حصافة المخطّط الاسـتراتيجي الإيراني الـذي ركّز علـى الهدف الذي يصيـب العراق في مقتل. يـرى بليتيير في كتابه السـابق الذكر أن اسـتمرار العراق في البقاء بعد قطع البصرة عنه يُعد أمرًا مشكوكًا فيه، لذلك فإن مجرد نجاح العراق فـي إيقاف الموجات الهاجمة وتدميرها، ومجرد إحباطه أي جهد إيراني استهدف البصرة، ومنعه

---

(2) للاطلاع علـى تفاصيل أكثر عن الحادثة التي هـزت أخلاقيات إدارة ريغان، انظر ملف أولي نورث في موقع مجلس الأمن القومي: National Security Archive, «The Oliver North File: His Diaries, E-Mail, and Memos on the Kerry Report, Contras and Drugs,» (National Security Archive Electronic Briefing Book; no. 113, 26 February 2006), on the Web: <http://www2.gwu.edu/~nsarchiv/index.html>.

في الوقت نفسه القطعات الإيرانية من التمركز الفاعل المؤثر في أراض عراقية ذات أهمية استراتيجية أو عملياتية، يُعد بحد ذاته إنجازًا كبيرًا[3].

- المرحلة الرابعة: مرحلة الاستنزاف واحتلال الفاو

تحوّلت هذه الصفحة إلى صفحة استنزاف إيراني لموارد العراق الدفاعية، ومحاولة مدروسة لتدمير معنويات الجبهة الداخلية، الأمر الذي دفع إلى استهداف الداخل العراقي ومن ضمنه بغداد، بالقصف الصاروخي، ثم إخضاع البصرة لقصف مدفعي يومي شكّل سمة من سمات حياة المدينة التي عاش سكانها تحت وابل القصف المدفعي في أثناء هذه الحرب الطويلة، ورفضوا تركها ومغادرتها وتحملوا عناء الحرب كأنهم جنودٌ مقاتلون في جبهة قتال.

اضطر العراق إلى خوض الحرب نفسها مع إيران (حرب المدن)، وبزخم صاروخي وجوي أكبر، خصوصًا بعد نجاحه في تأمين مواقف جوية ملائمة لمصلحته في جو المعركة، ونجاحه في تطوير إمكاناته في التقانة الصاروخية، الأمر الذي أتاح له تطوير مديات صواريخ سكود السوفياتية من نحو 250 كلم إلى 350، وإلى 600 كلم، وأنشأ جيلًا من هذه الصواريخ أطلق عليه مسمى «الحسين»، بما له من رمزية لدى كلٍّ من شيعة العراق وإيران،

---

(3) Stephen C. Pelleticre, *The Iran-Iraq War: Chaos in a Vacuum* (New York: Praeger, 1992), pp. 13-18.

علاوة على نجاحه في الوصول إلى مدى 950 كلم بصواريخ أطلق عليها اســم «العباس» أخ الإمام الحسين غير الشقيق الذي استشهد معه في معركة الطف، والذي يحمل اسمه قدسية خاصة لدى شيعة العراق، بحيث يخشــى من يُقسم باســمه كذبًا من وبال ينزل عليه. وكانت صواريــخ «العباس» هذه هي الوبال الــذي أنزله العراقيون بطهران وقم والمدن البعيدة الأخرى في العمق الإيراني.

حســم العراق معركة المــدن الصاروخيــة لمصلحته، لكن البصرة المدينة العراقية الثانية ظلــت تحت مدى القصف المدفعي الإيراني اليومــي، الأمر الذي حوّلها مدينةَ مواجهــةٍ جبهويةٍ فعلًا، كمــا أوردنا آنفًــا، وبدا أن هذه المدينة تشــكّل حقًــا نقطة ضعف الاستراتيجية الدفاعية العراقية، بما لها من أهمية استراتيجية خطرة على التخطيط الدفاعي الاستراتيجي العراقي. يعود السبب الرئيس الذي جعل من البصرة نقطة ضعف اســتراتيجية خطرة إلى إخفاق القوات المسلحة العراقية في تحقيق أهداف الاستباق الأولى، وهي إبعاد قوات العدو عــن الأراضي والمدن العراقية، وعند مناقشــتنا هذا الإخفاق في قاطع البصرة نــرى أن الإخفاق في تحرير جزيرة الخضر (عبادان) وانهيار الدفاعات العراقية على مشــارف الأحواز هما الســبب الذي فتح المجال للقوات الإيرانيــة المتفوقة بالقوة البشرية، والمشحونة بروح الاستشــهاد لاختراق حدود العراق في قاطع البصرة حتى نهاية الحرب.

من هنا انصبّ الجهد العراقي بلا كلل على إنشاء مانع دفاعي كبير ومعقد، يمنع الإيرانيين من اختراقــه والوصول إلى البصرة أو

التفكير فــي تطويقها، لذلك أقام مانعًا دفاعيًّــا يعتمد على عمليات إغمارٍ للأراضي الواقعة على الحدود، فضلًا عن بحيرة الأســماك التي كانت تشكّل المانع الرئيس تجاه العدو. وساعدت استراتيجية الإغمار في تقليل قدرة العدو على الهجوم الجبهوي واسع النطاق، كما ســاعدت القوات العراقية في الاقتصاد بالقــوة والجهد وتهيئة القطعات للهجــوم المقابل الفوري، لحرمان العدو من الاســتفادة من كلٍّ مــن المبــادأة التي دأب علــى التمتع بها مــن جهة، ومن التفوق البشــري الذي وظّفه بهجمات الموجات البشرية المتوالية التي تهدف كما هو معروف إلى إشــباع المنظومة الدفاعية العراقية. كان تسلسل القدمات (Echelons) في الهجمات الإيرانية يعتمد على الأطفال والفتية لفتح حقول الألغام، يتبعهم الباسيج (قوات التعبئة) ثم الحرس الثوري ثم القطعات النظامية للجيش التي غالبًا ما تكون مدرعة أو آلية[4].

أفادت ســنوات الاســتنزاف الإيراني الموجّه تجــاه العراق القوات العراقية فــي تطويرها فكرها العســكري، ليتعامل مع نمط جديد وغير مســبوق من الأعداء الذين يتمتعون بالإصرار إلى أبعد الحدود، الأمر الذي جعل القيادات العراقية بالتتابع جاهزة للتعامل مع أي تطور يحصل فــي الجبهة. يقول ســتيفن بليتيير ورفاقه في كتابهم **القدرة العراقية وأمن الولايات المتحدة في الشــرق الأوسط** في معرض دراســتهم وتحليلهم الحرب العراقيــة - الإيرانية بهذا

(4) أصدرت مديرية التطوير القتالي كتابًا عن تعبئة الموجات البشــرية بقلم اللواء الركن علاء الدين حسين مكي خماس.

الصدد: «وبالتحليل الشامل للأداء العراقي طوال فترة الحرب أثبت العراقيون أنهم خبراء في حـل المعضلات، وكان ذلك واضحًا في إدارتهـم وتعاملهم مع مرحلـة الدفاع السـاكن، إذ حاولوا تجنب المجابهة لحين سنوح الفرصة التي تساعدهم في توظيف المواقف لصالحهم»[5].

تركّز جهد القيـادة العراقية في هذه المرحلة على إيجاد حلول عمليـة لمعضلة طـول الجبهـة وانفتاحها، ومحدوديـة القطعات القائمـة بواجب الدفاع قياسًـا على طول الجبهة، وفق القياسـات التعبوية العسـكرية. فأوجدت حلولًا مرحليـة، منها زيادة وتكثيف عدد الموانع الهندسـية أمام الخطوط الدفاعيـة، ومن هنا جاء زرع مساحات كبيرة بحقول الألغام لاسـتيعاب موجات الهجوم بقوات المتطوّعين الذين كان يقودهم رجال دين صغار المرتبة. ثم لجأت القوات العراقية إلـى تعبئة (تكتيك) الإغمـار، أي إغمار المناطق المفتوحـة أمام القطعات وعلـى أجنحتها بالميـاه المتوافرة بكثرة لتقليص أطوال الجبهات. وغير ذلك من الإجراءات التي شـكلت حلولًا عملية، لكن غير مثالية لمعضلة حقيقية كانت تعانيها القوات العراقية في الجبهة. وسـيفرض عليها موقف التحول إلى التعرض في الأشـهر السـتة الأخيرة من الحرب ضرورة إزالـة، أو تقليص عدد هذه الموانع، خصوصًا الإغمـار لتأمين مرور القوات العراقية الهاجمة عبرها. وهنا من المفيد الإشارة إلى أن هذه مهمة اعتمدها

---

(5) Stephen C. Pelletiere, Douglas V. Johnson and Leif R. Rosenberger, *Iraqi Power and U.S. Security in the Middle East* (Carlisle Barracks, Pa.: Strategic Studies Institute, U.S. Army War College, 1990), pp. 35-36.

الفريق الخزرجي، وساعد جهد الدولة المدني الهندسي الكبير في تحقيقها بعمل إعجازي، من دون مبالغة.

وقع الإيرانيون نتيجة التنافس الحاد بين مؤسستي الجيش والحرس الثوري في خطأ قاتل عندما تخلوا عن استراتيجية الاستنزاف التي اتّبعوها في مرحلة الحرب الثالثة، وعادوا إلى أسلوب الهجمات المباشرة على القوات العراقية، فأتاحوا للعراقيين الحرية في انتخاب الطرائق والأساليب اللازمة لمواجهتهم بحسب تطورات الموقف وكل حالة. من الأمور المعروفة في الحروب، خصوصًا الحروب الدفاعية التي تستغرق زمنًا طويلًا، أن كلا الطرفين المتحاربين سيتعرف إلى عوائد الآخر وطريقة تصرّفه في موضعه الدفاعي، وسياقات الأعمال اليومية التي يمارسها. هكذا كانت تصرفات العدو مدروسة مرصودة بالنسبة إلى العراقيين، ولم تخطئ إلا في حالة واحدة، عندما حققت إيران مباغتة تامة على المستوى العملياتي وتمكّنت من احتلال الفاو في عام 1986[6].

ناقش ديفيد سيغال ذلك في دراسته عن الحرب العراقية – الإيرانية المنشورة في صيف 1988 في مجلة شؤون خارجية. يعجب سيغال كيف أن 25 هجومًا نفّذتها إيران على المواضع العراقية منذ عام 1982 لم تنجح في كسر الدفاعات العراقية بشكل جدي إلا في الفاو (1986)، وحلبجة (1988)، على الرغم مما أورده من أرقام التفوق الإيراني العددي (1:3) لمصلحتها. وعزا

(6) David Segal, «The Iran-Iraq War: A Military Analysis,» *Foreign Affairs*, vol. 66, no. 5 (Summer 1988), pp. 947-952.

كثيرًا من الإخفاقات الإيرانية إلى تدمير الخميني مؤسسة الجيش وإعدامه ما يقرب من 5000 من كوادر الضباط. وعلى الرغم من أن هناك شيئًا من الصواب في هذا الطرح، فإن ما فات سيغال هو أن الدفاع العراقي كان ناجحًا جدًا في تصميمه على امتصاص زخم الهجمات الإيرانية وإجهاضها، بالاستفادة من الكثافة النارية الهائلة التي أمّنتها المدفعية في ساحات القتال، ومنظومة الموانع الهندسية التي سبقت الإشارة إليها، وكذلك بسرعة ردات الفعل بتنفيذ الهجمات المقابلة لإزاحة العدو من مواقعه، قبل استقراره فيها وإنشائه مواضع دفاعية. كان الفشل في تأمين المتطلبات الدفاعية التي سبقت الإشارة إليها هو السبب الذي تمخضت عنه نكسة القوات العراقية في الفاو في عام 1986، وكذلك بطء ردة الفعل في تنفيذ هجمات مقابلة منسقة وسريعة، كانت ستتيح لها قلع العدو وطرده من الأماكن التي احتلها، قبل أن يُتاح له الاستقرار وإنشاء منظومة دفاعية يسهل الدفاع منها. هذا هو سبب الإخفاق في الفاو، إذ بوغتت القوات العراقية وأُخذت على حين غرة نتيجة المخادعة الكبرى التي تعرّضت لها الاستخبارات العراقية، وأشار الفريق الخزرجي في مذكراته إلى هذه الحالة بالتفصيل، وكيف أنه تحسَّب من موقعه كمراقب وليس كقائد، وأبلغ زميله قائد الفيلق السابع بذلك. وبالنسبة إلى خسارة حلبجة أوضح في مذكراته أيضًا أن فشل القائد الميداني في الحفاظ على الأرض الحيوية في قاطعه الدفاعي (وادي زلم) كان السبب في انهيار دفاعاته وفي أسره.

مثّلت معركة الفاو شباط/ آذار - نيسان/ أبريل 1986 مرحلة

انتكاسة خطرة للتخطيط العملياتي العراقي، كما أنها مثّلت مباغتة استراتيجية فائقة ستنعكس تداعياتها على الفكر الاستراتيجي العراقي وما سيتمخض عنه من تخطيط استراتيجي وعملياتي وتعبوي. وأشارت مذكرات الفريق الخزرجي إلى هذا الموضوع والملابسات التي أحاطت به، والمخادعة الاستراتيجية التي كان المخطط العراقي أحد عوامل نجاحها، إذ ثبت أن المخطط العراقي، خصوصًا عنصر الاستخبارات فيه انساق كما ذكرنا إلى معلومات مضللة، نقلها الأميركيون عبر جهات صديقة وشقيقة توحي بأن الإيرانيين سيجددون هجومهم الشامل عبر منطقة هور الحويزة لتطويق البصرة من الشمال والغرب، لذلك فإن آراء أبداها كاتب المذكرات عندما كان قائدًا رديفًا لقائد الفيلق الرابع لم تجد آذانًا صاغية لدى القيادة العامة، وأصرت الاستخبارات على دقة معلوماتها، وبهذا ساهمت في نجاح المخادعة الاستراتيجية الإيرانية التي ساهم الأميركيون في تحقيقها، وهجمت إيران من مكان لم يكن متوقعًا ولم يكن مُدَافعًا عنه بكثافة، ونجحت في احتلال الفاو وقطعت اتصال العراق بالخليج من جهة شط العرب، وهددت اتصال العراق بالخليج من جهة خور عبد الله، وأعلنت إيران أنها أصبحت بتماس مع دول الخليج العربية من مكانها هذا الذي احتلته.

كان لاحتلال الفاو في عام 1986 تداعيات خطرة على كلٍّ من التوازن الاستراتيجي في الخليج العربي والموقف الجيوستراتيجي فيه لأن دول الخليج العربية التي كانت تعوّل كثيرًا على قدرة العراق على احتواء إيران توصّلت إلى قناعات جديدة بعد فشل العراق في إخراج إيران من الفاو. وكانت الكويت الأسرع إلى التحرك،

إذ بدأت بعملية اســتدعاء الولايات المتحدة الأميركية إلى الخليج العربي عبر اتفاقية تبديل العلم على ناقلاتهــا النفطية (Reflagging)، وذلك برفع العلم الأميركي عليها لتكون في حمايته، ومن هنا دخلت بحرية الولايات المتحدة الأميركية إلى الخليج العربي، وســاهمت في هذه الحماية التي تصاعــدت حتى قيام القوات الأميركية بتوجيه ضربات جوية/ بحرية محددة إلى منشــآت وناقلات إيرانية(7). ومع ذلك نجد أن هنالك مبالغة من ناحية المحلّلين الأميركيين في إضفاء دور أســاس على التــورط الأميركي في الخليج العربــي في القرار على نتيجة الحرب العراقية، وعلى الرغم من أن التورط الغربي في الصراع من جانبه البحري علــى الأقل، مثّل معضلة جديدة أضيفت إلى معضلات إيران الكثيرة المتأتية من لاعقلانية سياستها الخارجية، فإن هذا التدخل لم يكن هو السبب الحاســم في إنهاء الحرب، بل الفضل للتعرض العراقي واســع النطاق الــذي أنهى الصراع بتدمير القوة العسكرية الإيرانية وقدرة إيران على مواصلة الصراع.

أذكر من مرحلة وجودي فــي الأركان العامة آنذاك كم كانت هذه المخادعة الإيرانية مؤلمــة للقيادة العليا، وكــم بذلت القيادة مــن الجهد والدماء فــي محاولة اســتعادة الفاو التــي مثّلت أتون اســتنزاف فائق، إذ دفع العراقيون دماءً غالية لاســتعادتها من دون جدوى، وأذكر بألم كيف أن ســبعة آمري ألوية استشــهدوا على ما ســمي بمعركة العقدتين 14 و15 في المملحة، آخرهم ابن دورتي

(7) Anthony H. Cordesman and Abraham R. Wagner, *The Lessons of Modern War*, 4 vols. (Boulder, Colo.: Westview Press; London: Mansell Pub., 1990-1996), vol. 2: *The Iran-Iraq War*.

(دفعتي) الشـــهيد العميد اهتيمي نكه غيـــدان الدليمي، حتى قررت القيادة التوقف أخيرًا عن هجماتها المقابلة لأنها تحوّلت إلى مقبرة للقوات الهاجمة. كانت أسباب خسارة العراقيين الفاو وفشلهم في استعادتها فورًا بهجوم مقابل (وهو ما كان يحصل في صد هجمات إيرانية على قواطع أخرى) ما يلي:

- صعوبة الأرض: فأرض الفاو رخـــوة ملحية تجعل الحركة عليها محددة بالطرق الممهدة والمعبدة، الأمر الذي يجعل الحركة خارجها صعبة للغاية ومنهِكة.

- بطء ردة فعل القيادة الميدانية وعدم قدرتها على اســتيعاب الذي حصل ومداه، وانقطاع اتصالاتها بالقوات المدافعة في العمق، وعدم تأمين متطلبات قيامها بهجمات مقابلة بعد تبديل جبهتها من البحر نحو الداخل. وأضـــربُ مثالًا على ذلك لواء المشـــاة 101 الذي ظل يقاتل بعد انقطاع مواصلاته إلى أن نفد عتاده (ذخيرته).

- لاســتعادة الفاو لا بدّ من القيام بهجمات جبهوية على عدو متحصن بشـــكل جيد، ويمتلك النـــار المصوّبة، الأمـــر الذي يزيد خسائر القوات الهاجمة.

- اســـتند الدفاع المعادي فورًا إلى منظومة الســـداد المحيطة بالمملحة، وهي ســـداد متقاطعـــة طولًا وعرضًـــا تحيط بأحواض تُجفّف فيها مياه البحر لاســـتخراج الملح. أُطلق على نقاط تقاطع الســـداد اســـم العقد ومُنحت أرقامًا. أتذكر كم ابتلعـــت العقدتان 14و15 من خيرة شبابنا ضباطًا ومراتب، كما بينتُ آنفًا.

- استحالة المناورة الجانبية ومناورة ضرب الجناحين، وما كان متاحًا هو عملية إنزال بحري فحسب خلف خطوط العدو، ولم يكن بالإمكان تنفيذها لعدم اكتمال التدريب عليها حينئذٍ.

- أنشأ العدو على عجل منظومة أبراج مرتفعة لتشرف على ترتيبات العراقيين الدفاعية، وللتعرف إلى نيّاتهم الهجومية والتعرضية.

اتّخذت فورًا القرارات لإعداد ميدان المعركة في الفاو بشكل جديد وعلى أسس تخطيطية جديدة وبوشر بها طوال المتبقي من عام 1986، وأوائل عام 1987، حتى تم التخلي عنها لأسباب فرضتها تطورات المواقف في الجبهة. صدر في هذه الفترة قرار مجلس الأمن رقم 598/ 1987 الداعي إلى وقف إطلاق النار الذي دعا الطرفين إلى التفاوض، وهو قرار قبِلَه العراق توافقًا مع استراتيجيته في العمل على إنهاء الحرب بأسرع ما يمكن، ورفضته إيران، بل أصدر الخميني حكمًا بإنهاء الحرب لمصلحة إيران في ذاك العام. بدأت إيران تعرُّضها على الجبهة العراقية بسلسلة عمليات أطلقت عليها اسم «كربلاء»، لما لهذا الاسم من معنى مقدس لدى الشيعة، باعتبار كربلاء هي أرض معركة الطف التي تمثّل في الموروث الشيعي قمة الاستشهاد والتضحية والفداء.

نجحت سلسلة عمليات «كربلاء» في إحداث خروقات على الجبهة في الشمال والجنوب، وحققت اختراقًا واضحًا في الشمال عندما نجحت في احتلال قمم الجبال المشرفة على سد

دربندخان الاســـتراتيجي، ثم احتلال حلبجة، إلا أنها فشلت فشلًا ذريعًا في الجنوب عندما اســـتهدفت البصرة بإحاطتها من جنوبها، بعد خرق الدفاعات العراقية المتمركزة في قاطع الفيلق الســـابع. ومثّل فشـــل الخرق في جزيرة أم الرصاص جنوب البصرة فشـــلًا حقيقيًا للجهد الإيراني في احتلال البصرة. يشـــير بليتيير وزملاؤه بهذا الصدد إلى أن فشـــل هذه العملية «كربلاء 5» هو الذي رسم النهاية لقدرات إيران التعرضيّة وأفسح للعراق العمل على استعادة المبادأة[8].

لعل من المهم هنا بيان أن هناك أعمالًا منظمة أخذت مسارها بالتـــوازي بهدف إحداث نقلـــة نوعية في التخطيط الاســـتراتيجي العراقي. أشـــار الفريق الخزرجـــي في مذكراته مثـــلًا إلى مفصل مهم في هـــذه المرحلة، يتمثل بمجموعة الأفـــكار التي رأى بحق أنها ســـتكون كفيلة بإحداث تحول نوعي فـــي المواجهة، وتُفضي بالنتيجة إلى إنهـــاء الحرب لمصلحة العراق. هـــذه الأفكار كتبها عندما كان قائدًا للفرقة الســـابعة وكان يفكر بهـــا بصوت عالٍ في نقاشاته مع هيئة ركنه.

تشـــجع وبادر بالكتابة إلـــى القائد العام شـــخصيًا عنها، فنوّه الرئيس القائد العـــام بها، وحث الفريق الخزرجـــي على الكتابة له باســـتمرار، لكنه لم يتخذ أي إجراءٍ محدد بصددهـــا، إلى أن ذَكّرَهُ الفريق الخزرجي بها في أول مناســـبة. اســـتقبل القائد العام رئيس

(8) Pelletiere, Johnson and Rosenberger, pp. 38-40.

أركانه الجديد (الفريـــق الخزرجي) فـــي 17 تموز/يوليو 1987، وأقرّها فبدأت سلســـلة متوازية ومتوالية لإعداد القوات المســـلحة العراقيـــة للحرب بفكر جديـــد، يحمل التعرض بيـــن طياته. وبُذل الكثير من الجهد لرفع كفاية الوحدات تدريبيًا، ولم يُســـمح للعدو أبدًا بالتدخل في ترتيبات إعداد القوات في خروقاته وفاعلياته كلها حتـــى أخطرها، عندما احتل حلبجة وسلســـلة شـــميران ومحاولته السيطرة على سد دربندخان في سعي إلى إغراق بغداد.

من أهم الخطـــوات المتخذة في هذا المجـــال وعلى صعيد التخطيط الاستراتيجي ضرورة الحصول على موقف جوي ملائم طوال فترة المواجهة، ومنـــع القوات الجوية الإيرانية المنهكة فعلًا من استعادة أنفاسها والتدخّل في مجريات المعارك. نجحت القوة الجوية العراقية هنا في تأمين «ســـيادة جوية» على أرض المعركة ونفّذت سلســـلة من عمليات الإســـناد الجوي القريب والإســـناد الجوي التعرضـــي والتجريد (Interdiction) على ســـاحة العمليات. كما نجحـــت في تأمين موقف جـــوي ملائم على ســـماء الخليج العربي وصولًا إلى مشـــارف مضيـــق هرمـــز، إذ ضربت ناقلات إيرانية ومنشـــآت نفطيـــة وبحرية في جزر لافان (Lavan) وســـيري وغيرها، من دون تدخل ولو بســـيط من القوات الجوية الإيرانية. لهـــذا الغرض تم تســـليح ســـرب من طائـــرات الميـــراج (EQ-5) بالصواريخ البحرية (Exocet AM-39) لتُســـتخدم في هذه الواجبات. ولتلافي إشـــكالية عدم مســـاعدة المدى، تدربت القوات الجوية العراقية على عمليات الإرضاع الجـــوي التي نفّذتها بكفاية عالية،

الأمر الذي نقلها إلى مستوى متقدّم بين القوى الجوية العاملة في المنطقة. ومن التدابير الممتازة التي قامت بها القوة الجوية العراقية في هذا المجال تطوير قدرتها الاستطلاعية والتصويرية لساحة العمليات، بعدما وُظِّفت طائرات الاستطلاع ميغ 25 أحسن توظيف لاستطلاع وتصوير أرض المعركة، الأمر الذي عزز نجاحات الاستخبارات العسكرية في هذا الصدد. فضلًا عن ذلك نجح التصنيع العسكري العراقي بالتعاون مع هيئة البحث العلمي للقوات المسلحة العراقية والقوات الجوية العراقية في تصنيع نموذجٍ أوليٍّ ثم نهائيٍّ لطائرة استطلاع للإنذار المبكر عراقية (EWACS)، بتركيب صحن الرادار الدائريّ على ظهر طائرة بوينغ 747، وهو إنجاز كبير في حقل الحركيات الجوية (Aerodynamics). وتم تصنيع طائرتين من هذا الطراز أخذتا تسمية «عدنان» و«عدنان 2»، إحياءً لاسم الراحل الفريق الأول الركن عدنان خير الله الذي قضى بحادث طائرة في عام 1989.

يعني هذا كله أن مدرسة الفكر العسكري العراقي الجديدة بدأت تؤتي أكلها. وهنا سيكون للفريق الخزرجي شأن مرموق في بعث هذه المدرسة فور تسنّمه منصب رئيس الأركان الذي يُعد الرئيس المهني الأعلى للقوات المسلحة والمستشار العسكري الأول للقائد العام للقوات المسلحة رئيس الجمهورية. وجرت وبشكل متزامن خطوات حثيثة لإعادة تدريب التشكيلات المقاتلة على العمليات التعرضية، وعبور الموانع المائية، والتعاون بين تشكيلات بمقياس كبير (فرقة فأعلى). وتم التدريب على التنقّل والمرونة في استخدام الطرق، وجرى تعظيم حجم ناقلات

الدبابات بالاســتفادة من ناقلات جهد الدولة الهندســي المركزي التي تُســتخدم لنقل المعدات الهندســية الثقيلة. كمــا وُجّه جهد الدولة الهندســي المركزي إلى إعداد ســاحة العمليــات وعمقها الإداري للمعارك المقبلــة. فتحت هذه الإجــراءات كلها المجال حثيثًا للمرحلة الخامسة والحاسمة من الحرب. ولاحظنا كيف ألقى الفريق الخزرجي ضوءًا على هذه الإنجازات.

الفصل الخامس

معارك التحرير الكبرى

- المرحلة الخامسة: استعادة المبادأة ومعارك التحرير وإنهاء الحرب

هذه هي المرحلة الحاسمة والنهائية في الحرب، المرحلة التي تقررت بها نهاية هذه الحرب الضروس التي استنزفت من دماء أبناء البلدين الكثير، من دون أن يكون للحكمة مجال في محاولة وضع حد لهذا الاستنزاف بسبب الأثر السلبي للتعصب والعناد الذي يتحمل البلدان مسؤوليته بشكل مشترك، لكن مسؤولية الجانب الإيراني هي الأكبر بالتأكيد.

بعد أن استفحل الخطر المحيق بالعراق جراء إصرار إيران على احتلال البصرة باعتبارها مفتاح الانتصار وإنهاء الحرب لمصلحتها، وبعد الاستنزاف الهائل الذي سببته معركة الفاو في عام 1986، اتّخذت القيادة العراقية قرارًا صائبًا في تولية منصب رئاسة أركان الجيش العراقي لشخصية تتصف بالصفات التي تقود الجيش إلى الانتصار. وجدت القيادة العراقية أن أفضل من يتمتع بهذه الصفات هو الفريق الخزرجي الذي كان آنذاك قائدًا للفيلق الأول في شمال القطر ومسؤولًا عن العمليات في الجبهة المتاخمة لإيران، اعتبارًا من نقطة دخول نهر ديالى إلى الأراضي العراقية حتى المثلث العراقي التركي الإيراني.

وجد الفريق الخزرجي في اختياره لهذا المنصب فرصة لإعادة طرح ما سبق وفكّر فيه، لإنهاء الوضع الراهن والخروج من دوامة الدفاع السلبي إلى عمل تعرضيّ يحرر الأراضي العراقية، ويُنهي الحرب لمصلحة العراق وبانتصار ناجز. من هنا اهتبل فرصة لقائه القائد العام للقوات المسلحة، وأعاد عليه أفكاره التي أرسلها إليه تحت عنوان «أفكار مقاتل في القادسية». فوجّهه القائد العام إلى العمل في ضوئها، وإلى المباشرة في إعداد الخطط اللازمة للتنفيذ، وإعداد وتدريب القوات على هذا الأساس.

توج الخزرجي فكره العسكري ومهارته القيادية في تخطيطه وقيادته عمليات التحرير الكبرى التي ختمت الحرب العراقية - الإيرانية. نجد هنا محطة مهمة يندر تصوّرها في تلك الأحوال، وتنم عن مدى الثقة التي كان الرئيس القائد العام للقوات المسلحة يوليها للفريق الخزرجي عندما قرر، بعد موقف قيادي معين، أن يخوّل كلًا من نائب القائد العام الراحل عدنان خير الله والفريق الخزرجي صلاحية القائد العام نفسه في ساحة العمليات التي تعني بالفعل إصدار الأوامر للحرس الجمهوري، ومسؤولية الحرس العملياتية الميدانية أمامه[1]. كان ذلك واحدًا من الدروس المستنبطة المهمة التي حققت النصر وهو التزام وحدة القيادة[2]. عرض الفريق

(1) انظر: Stephen C. Pelletiere, Douglas V. Johnson and Leif R. Rosenberger, *Iraqi Power and U.S. Security in the Middle East* (Carlisle Barracks, Pa.: Strategic Studies Institute, U.S. Army War College, 1990), p. 38.

(2) ربما كانت قراءاته الأولى لتجارب الحرب العالمية الثانية في معارك شمال أفريقيا ومقارنته بين السلوك القيادي للجنرال رومل والجنرال مونتغمري، وتأثره الواضح بالشخصية القيادية الفذة للجنرال أروين رومل أحد القادة العسكريين الأفذاذ، هي البذرة =

الخزرجي في مذكراتـه صفحات هذه المرحلة مـن الحرب، وقد بلغت خمس صفحـات، وابتدأت بتحرير مثلـث الفاو الذي نجح العدو في احتلاله في عام 1986، بعملية اقترن فيها الفيلق السـابع بالحرس الجمهـوري والقوات البحرية العراقيـة في عملية مناورة تسترعي النظر، ألقى الخزرجي عليها الضوء.

كانت عمليـة «رمضان مبارك» (التي أشـار إلى خلفية إطلاق اسـم رمضان مبارك عليهـا) عملية اتسـمت بالتخطيـط الدقيق والمخادعة الاستراتيجية واسعة النطاق، التي لم توجَّه إلى الخصم الإيرانـي فحسـب، بل إلى الـدول الكبـرى أيضًا وعلى رأسـها الولايات المتحدة الأميركية التي بدأت الشـكوك في عدم حيدتها في هذه الحرب تتضح، بعد عملية سقوط الفاو بيد القوات الإيرانية (1986) كما أشرنا سـابقًا، وأوضحها الخزرجي في ذكرياته. أذكر أننا كنا في قاطع السـليمانية والفيلـق الأول يتهيـأ لعملية تحرير حلبجة حينما استدعي أعضاء القيادة العامة للقوات المسلحة (نائب القائد العام/ وزير الدفاع الذي كان مع القيادة العامة في السليمانية، ورئيـس أركان الجيش ومعاونـه للعمليات ومدير الاسـتخبارات العسـكرية العامـة، وكنت معهم فـي الطائرة نفسـها التي هبطت في المطار الدولـي، وتوجهوا هم إلى مـكان مجهول (اتضح من المذكرات أنه مسـكن الرئيس)، وتوجهت إلى مقرّ الأركان العامة. بدأت عملية تحرير الفاو بعد 24 سـاعة من هذا اللقاء، وتحررت

= الأولى التي أنشـأت روح التعرض في الشخصية المهنية للفريق الخزرجيّ. للمقارنة بين النمطين القياديين أعلاه انظر: شـكري محمود نديم، حرب إفريقيا الشـمالية، 1940-1943، ط 5 (بيروت: دار مكتبة الحياة، 1974).

الفاو بأقل من 36 ســاعة وبعملية منســقة ومنظمة حققت أهدافها ورفعت معنويات القوات العراقية كثيرًا(3).

تداعت بعدها أربــع عمليات أُطلق عليهــا «توكلنا على الله»، وجِّهــت أولاها إلى الشــلامجة، وهـــي ذلك القطــاع من الأرض الحدودية العراقية التي تفصل بين شــط العرب وبحيرة الأســماك، ويقع فيها مخفر الشلامجة الحدودي العراقي - الإيراني، نفِّذت هذه العملية بوقت أبكر مما خُطّط له بأربع وعشــرين ساعة، بعد تسرب توقيتها الأصلي إلى الإيرانيين من جانب الأميركيين عبر طرف ثالث كما يظن العراقيون. لم تتأثر لا الخطة ولا الأداء نتيجة هذا التقسيم، وتم إجهاض التعرض المقابل الإيراني وسيق آلاف الأسرى.

أســهب الخزرجي في وصف هــذه العمليــات الأربع بكل وضوح، ونظرًا إلى أنهــا العمليات التي أنهــت الحرب العراقية - الإيرانية عمليًا في 8 آب/ أغسطس 1988، سنحاول بيان الدروس المســتفادة منها اســتنادًا إلى ما جاء فــي المذكرات التــي كتبها، والاســتئناس بما كتبه الآخــرون عنها. نحن نــرى أن حصيلة هذه المعارك تمثِّل موقفًا مشــرّفًا للعســكرية العربيــة، قاتلت فيه بكل إصرار وعــزم، وبتخطيط علمي مــدروس، درِّس عند أكبر وأقوى جيوش العالــم أي جيش الولايات المتحــدة الأميركية، وأصدرت المارينز (مشاة البحرية) كتابًا خاصًا عنه، كان أحد مراجعنا المهمة في إعداد تقديمنــا التحليلي هذا. لم يكن هذا ليحدث لولا الأهمية

(3) Pelletiere, Johnson and Rosenberger, pp. 38-46

البالغة لدراسة تجربة العسكرية العربية هذه التي استرعت الأنظار إليها جملة أسباب أهمها[4]:

- إنها تجربة لحرب طويلة شهدت مختلف التطورات المتوقعة في أرض المعارك، من تقدّم وهجوم ودفاع وانسحاب، كما شهدت مختلف عمليات المخادعة والاستخبارات.

- إن المدى الزمني لهذه الحرب فاق المدى الزمني للحرب العالمية الثانية، الأمر الذي يجعل من الممكن دراسة وسبر أغوار التداعيات التي خلّفتها على شعبي البلدين وجوارهما الإقليمي.

- صحيح أن هذه الحرب تورّط فيها البلدان المتحاربان، إلا أن بلدانًا أخرى في المنطقة اكتوت بنارها، ومنها أقطار الخليج العربي وشملت تداعياتها العلاقات العربية - العربية، بعدما شهدت الحرب اصطفاف بعض العرب إلى جانب إيران، وتأتي سورية في مقدّمهم، كما هي الحال مع ليبيا وبلدان أخرى.

- شهدت المرحلة الختامية من الحرب انتقال الصراع إلى مياه الخليج العربي، عندما فرض العراقيون الفائقية الجوية واستخدموا

---

(4) من التحليلات المعمقة والممتازة التي أجريت في الولايات المتحدة الأميركية التحليل الذي قام به أنتوني كوردسمان وأبراهام واجنر في سياق كتاب جامع لهما أصدره مركز الدراسات الدولية والاستراتيجية في واشنطن (CSIS)، تناول الجزء الثاني منه الحرب العراقية - الإيرانية، وكان هذا الكتاب أحد مصادرنا لهذه الدراسة. انظر: Anthony H. Cordesman and Abraham R. Wagner, *The Lessons of Modern War*, 4 vols. (Boulder, Colo.: Westview Press; London: Mansell Pub., 1990-1996), vol. 2: *The Iran-Iraq War*.

الصواريخ (جو - بحر) في تدمير ناقلات النفط والمنشآت البحرية الإيرانية، كما شـهدت بداية تورط الولايـات المتحدة في الحرب البحرية بعد تعرّض سفنها الحربية للنيران الإيرانية.

- كانت العمليات الختامية للحرب البرية تمثّل مناورات على المستوى العملياتي/ الاسـتراتيجي على مسـتوى متميّز من الدقة والمهارة في الأداء، الأمـر الذي جعل من دراسـتها وتحليلها بل وتدريسها أمرًا مطلوبًا.

- تزايد العدوانيـة الإيرانية على الرغم مـن النتائج الكارثية كلها التي أحاقت بها، الأمر الذي جعل دراسـة الشخصية الإيرانية ودورها في القتـال أمرًا مهمًّـا، وهو ما حدث فعـلًا، إذ توجهت جامعات أميركية إلى تحليل دور المسـجد الشيعي في الثورة ودور رجال الدين، وقدم الطالب الإيراني سـيروس وكيل الزاد أطروحته هذه لجامعـة ولاية كاليفورنيا. وتولت جامعة وسكنسـن دراسـة المرتكزات الاجتماعية للثورة الإيرانية في أطروحة بعنوان «تحليل اجتماعي للثـورة الإيرانية» قدّمهـا ونال عنها الدكتـوراه الطالب الإيراني منصور معدل[5].

- في هذه الحرب اسـتخدمت حزمة واسـعة من الأسـلحة غربية وشـرقية، قاتل بها جنود الطرفين المتحاربيـن، الأمر الذي

(5) ترجمنا لبيت الحكمة ببغداد أطروحة دكتوراه لطالب إيراني اسـمه سيروس وكيل الزاد قدمها تحت عنوان «دور المسـجد الشـيعي في الثـورة الإيرانية». وترجمنا أطروحـة دكتوراه أخرى لطالـب إيراني آخر هـو منصور معدل تحت عنـوان «تحليل اجتماعي للثورة الإيرانية». وأصدر بيت الحكمة الكتابين للتوزيع المحدود.

شـــكّل فرصة ممتازة لدراســـة وتحليل أداء هذه الأسلحة وقدراتها وإمكاناتها. وتولّى البلـــدان المتحاربان تكييف وتعديل بعضها ومد وزيادة مدياتها لتلائم الاستخدامات المطلوبة في ساحة العمليات.

- لعل من إنجازات هذه الحرب عمليات المناورة الواســعة التي نفّذتها القوات المســلحة العراقية بتحقيق اقتران قوات كبيرة (فيلق فأكثر) تقاتل بأنواع مختلفة من الأســلحة مختلفة المناشئ والخصائــص، لتحقيق غاية واحدة هي النصــر. ونجح العراقيون بشــكل جيد في قَرْنِ أســلحة ذات منشأ ســوفياتي بأسلحة ذات منشأ غربي (فرنسا والبرازيل وتشيلي والأرجنتين وجنوب أفريقيا وغيرها)، فضلًا عن الأسلحة الصينية التي كانت تُصنع على النمط الســوفياتي. إن واحدًا من التحديات الدقيقة مثــلًا هو كيفية إدارة نيران المدفعية المختلفة المنشــأ والمختلفة في جداول رميها في خطة نارية واحدة[6]. وهي معضلة تمكّنــت المدفعية العراقية من أن تجد لها حلولًا ناجعــةً، وكان لنجاح المدفعية في تركيز نيرانها على أهداف حَسُنَ انتخابها، بناءً على معلومات استخباريةٍ دقيقة، شأن مهمٌّ في صنع نهايات ناجحة لمواجهات قتالية عديدة. وأشار المؤلف إلى محطات مهمة كان للمدفعية فيها شــأن مهمٌّ في صنع النصر مثــل معارك جوارتة ومــاوت. فضلًا عن معــارك التحرير الخمس النهائية حيث كان تنســيق نيران المدفعية والقوة الجوية، وحركة القطعات الهاجمة متميّزًا.

---

(6) انظر مثلاً الشكل (3.2) القســم الأول، (3.2) القسم الثاني من القسم الثاني من كتاب كوردســمان وواجنر الذي يبيّن تنوّع مصادر التســليح للطرفيــن في الأعوام 1980-1987: Cordesman and Wagner, vol. 2: *The Iran-Iraq War.*

الفصل السادس

تحليل أدوار القوات والصنوف (الأسلحة)

أشـــار الفريق الخزرجي في مذكراته إلـــى دور القوات (البرية والجوية والبحرية العراقية) في الحــرب العراقية - الإيرانية طوال مراحلهـــا أينما وجد ذلك مناســبًا مـــن زاوية تعاطيـــه مع الحدث في زمنه. ولضرورة إلقاء الضوء بشـــيء مـــن التحليل العلمي على دور هذه القوات وأســـلحتها (صنوفها) في هـــذه الحرب نجد من المناســـب المرور عليها وتلمّس المحطـــات والانعطافات المهمة التي واجهتها، وما اتّخذ في الســـياق الزمني للحرب من إجراءات لتعديل أو تحسين أو تطوير الأداء أو المعدات أو كليهما.

أولًا: الحرب الجوية

تنقسم الحرب الجوية إلى أربع صفحات هي على التوالي:

- **الصفحـــة الأولى**: الضربـــة الإجهاضية الأولـــى وعمليات التجريد العميق.

- **الصفحة الثانية**: عمليات الإسناد الجوي التعرضي والإسناد الأرضي.

- **الصفحة الثالثة**: عمليات القتال الجـــوي البحري والتغلغل العميق.

- الصفحة الختامية: إسناد عمليات التحرير الكبرى الخمس.

بادئ ذي بدء، كان الموقف الجوي في مفتتح الحرب العراقية - الإيرانية يميـل نظريًا على الأقل إلى جانب إيـران، إذ كان لدى القوات الجوية الإيرانية 475 طائرة قتال، منها 209 طائرات فانتوم (F-4)، و80 طائرة Tomcat (F-14)، فضلًا عن طائرات (F-5). في حين امتلك العراق في ذلك الوقت 325 طائرة أغلبها سـوفياتية المنشأ، ولم يكن لديه من الطائرات ذات المنشأ الغربي إلا عددًا من طائرات الهوكر هنتر العلامة 6 البريطانية. لكن المعلومات المرصودة لدى الاسـتخبارات العراقية بيّنت أن الوضع الفني ودرجة الاسـتعداد القتالي للقوة الجوية الإيرانية كانا متدنيين بسـبب إجراءات التطهير التي تعرضت لها القوات المسلحة الشاهنشاهية، ومن ضمنها القوة الجوية. وكان هذا التحليل صحيحًا إلى حد كبير[1]. ولو أنه لم يمنع القوة الجويـة الإيرانية من أن تردّ وبمقياس واسـع في اليوم الثاني من الضربة الجوية العراقية الأولى، الأمر الـذي يعني تمكّن القوة الجوية من تجاوز ما نتج من الضربة العراقية من خسـائر، حين تم إصلاح المدارج وأعيد تشغيل القواعد الجوية عملياتيًا بحيث أتيح الرد الجوي المقابل في اليوم الثانـي بعد الضربة، أي يوم 23 ومع الفجر الأول[2].

---

(1) G. Hossein Razi, «An Alternative Paradigm to State Rationality in Foreign Policy: The Iran-Iraq War,» *Western Political Quarterly*, vol. 41, no. 4 (December 1988), p. 711.

(2) Anthony H. Cordesman and Abraham R. Wagner, *The Lessons of Modern War*, 4 vols. (Boulder, Colo.: Westview Press; London: Mansell Pub., 1990-1996), vol. 2: *The Iran-Iraq War*, Part 8, p. 8.

بشكل وآخر كانت هذه الحرب صراعًا بين تقانتين من منشأين مختلفين، أحدهما شـرقي سـوفياتي يعتمد أساسًا على طائرات سلسلة ميغ (21,23,25,29) في واجبات الاستطلاع والقتال الجوي، وطائرات سوخوي (24 و25) في واجبات الإسناد الجوي التعرضيّ والقتال الجوي الأرضي، وهذه الطائرات تُعد من الناحية التعبوية مكافئة لطائرات الهجوم الأرضي الأميركية (A-9 and A-10). وأضاف العراق بنجاح طائرات (Mirage F-1) إلى ترسانته الحربية، وتحوّلت في المراحل النهائية من الحرب لتكون المقاتلة الرئيسة في قواته، وامتلك منها خمسة أسراب، خصّص منها جهدًا للطيران البحري، عمل وبجد في تأمين الفائقية الجوية للعراق مقابل إيران، وتمكّن، من خلال استخدام تقانة الإرضاع الجوي، من الوصول إلى أهداف استراتيجية إيرانية تقع على مدخل الخليج الجنوبي الغربي قرب مضيق هرمز. فضلًا عن هذا الجهد ساهمت القاصفات الاستراتيجية العراقية من طرازي بادجر (Tu-16) و(Tu-22) بلايندر، فضلًا عن القاصفات الخفيفة (IL-28).

ساهمت الاستخدامات الإيرانية المسرفة لجهدها الجوي، إبان التعرض الإيراني المقابل واسع النطاق في عام 1982، في استنزاف ذلك الجهد، وعمل نقص المعرفة المهنية وتآكل المتيسر منها نتيجة الخسائر والهروب واستلام العراق طائراته الجديدة من طراز (Mirage F-1)، في حصول العراق على الفائقية الجوية على أرض المعركة واحتفاظه بها حتى نهاية الحرب[3]. ولعل من

(3) المصدر نفسه، ص 27.

المفيد بيان أن العراق بيّن فـــي بياناته أنه نفّذ 400000 طلعة جوية على الأراضي والمياه الإيرانية، وفي هذا دليـــل على تنامي القدرة الجوية العراقية، وبشـــكل متصاعد فور صد العراق الهجوم المقابل واسع النطاق الذي شـــنّته إيران في عام 1982[4]، كما أن الحرب اختُتمـــت ولم يتبق لدى إيران إلا 80 طائـــرة قتال، في حين تنامت القوة الجويـــة العراقية لتصل إلى نحو 500 طائرة قتال، ومن خلال إضافة تقنية نوعية جديدة مثّلتها طائرات الميراج (F-1)[5].

1 - الدروس المستفادة من الحرب الجوية

كانت الحرب الجوية العراقية - الإيرانية مجالاً ذا مدىً زمني كافٍ للخروج بجملة اســـتنتاجات تشـــير إلى دروس مستفادة من الاســـتخدام القتالي للقوات الجوية في هذه الحرب. وقبل أن نورد هذه الدروس على شـــكل نقاط، نرى أن الجانبين قاتلا ما بوسعهما بهدف حصول كلٍ منهما على السيادة الجوية على ساحة المعركة، على الرغم من أن مفهوم السيادة الجوية لم يعد قيد الاستخدام في أدبيات القوات الجوية في ضوء تطوُّر وتناظر وسائل القتال للدول المختلفة وصعوبة إخراج القوة الجوية المعادية من أجواء المعركة، لكن الذي جرى في القتال الجوي بين الطرفين أن سعي كلٍّ منهما إلى إخراج الطرف المعادي من أجواء المعارك تسبب في استنزاف واسع النطاق لموارد الطرفين. وفي ضوء مرونة الدبلوماسية العراقية

(4) *Jane's Defense Weekly* (21 January 1989), p. 81.

(5) Cordesman and Wagner, vol. 2: *The Iran-Iraq War.*

والمصالح المترسخة بين العراق وفرنسا، تمكّن العراق من تعويض النقص البارز في التقنية والاستنزاف اللذين تعرّض لهما سلاحه الجوي، بتأجير طائرات السوبر إتندارد البحرية أولًا، ثم تعويضها بالطائرة ميراج (F-1) بأنواعها. وساعد نوعها البحري (F-1 EQ5) في فرض موقف جوي ملائم عراقي على الخليج العربي، الأمر الذي أتاح له استخدام هذه الطائرة المعقدة بكفاية ملحوظة.

وفي ما يلي أهم الدروس التي نرى أن القتال الجوي بين الخصمين أتاحها كدروس للمستقبل:

- للقوات الجوية تأثير كبير في الحرب، لكن تأثيرها على الدوام لم يكن حاسمًا في رسم صورة نهائية للحرب. الجهد الجوي عنصر معاون للسلاح الوحيد القادر على رسم نتيجة المعركة بتواجده على الأرض فعلًا.

- كذلك، من الصحيح نجاح عمليات التجريد الجوي في إلحاق أذى كبير بالوضع السياسي الاجتماعي الاقتصادي في بلد الهدف، إلا أنه من الصحيح أيضًا أن نتائج هذا التجريد ستصب في تفكيك قدرة الخصم على التحمُّل والمطاولة فحسب، حيث قُصف العراق بعنف في الحروب الثلاث التي عاشها في العقدين المنصرمين، إلا أنه لم يُجبر على اتّخاذ موقف الخاسر، إلا عندما وطئت أقدام الغزاة أرضه. في حين لم تنجح عمليات القصف المركزة بين الحربين (1991 - 2003) في أن تثني القيادة العراقية عن موقفها.

- يبــدو أن البلدين - إيران على وجــه التحديد - لم يتمكّنا من الاســتفادة من التقانــة العالية التــي يتيحها التســليح الغربي المتوافــر لديهما، فإمكانات طائرة التفوّق تومكات (F-14) ليســت قليلــة، وتســليحها الرئيس المتيسّــر لــدى إيران وهــو صاروخ فونيكــس (Phoenix)، صــاروخ ذو خصائــص متقدمــة، وأجهزة الحرب الإلكترونيــة المحمولة عليه متفوقة، لكن لم ينفع لســوء الخزن وانعدام الصيانة بســبب مغادرة أفــراد الصيانة الأميركيين بعد الثورة. وكانت لدى العراقيين مشكلات في التعرف الراداري والتوجيــه في المراحل الأولى من الحــرب، وتمثّل عملية ضرب المدمِّرة الأميركية ســتارك من جانب القوات العراقية مثلًا عليها، فلم يكن بين القــوة الجوية العراقيــة بمهماتهــا البحرية وبحرية الولايات المتحدة أجهزة تميِّز العــدو من الصديق (FFI). وتلافت القوة الجوية العراقية نقــاط الضعف في التوجيه والتمييز ومعالجة الأهداف على البحر، وهي مهمات لم يســبق لهــا التدريب عليها والقيام بها.

2 - طيران الجيش

في بداية الحــرب لم يكن ســلاح طيران الجيــش قد تبلور بشــكل واضح، على الرغم من وجود معين من الطائرات السمتيّة (الهليكوبتر)، كان أغلبها من الطراز الروســي (الســوفياتي) (Mi-6, Mi-8) التي كانت تُستخدم لأغراض النقل، وكانت تشوبها تحديدات فنية معينة عند اســتخدامها، خصوصًا في أحــوال درجات الحرارة المرتفعة. لكن مع اندلاع الحرب ســعت القوات المسلحة العراقية

إلى الحصول على ترسانة من الطائرات السمتيّة لتعزيز أسطول طيران الجيش.

لعل من أهم هذه الطائرات طائرة السوبرفريلون الفرنسية الصنع المسلحة بحاملتين لصواريخ أكسوسيت (AM-39) جو – بحر، وتشكّل سرب الطيران البحري من هذه الطائرات، وأبلت بلاء حسنًا في المراحل الختامية من الحرب بعد أن عانت معها هيئة الركن البحرية صعوبة التمييز والتعرف إلى طبيعة الأهداف الإيرانية الظاهرة على الرادار في مراحل الحرب الأولى.

من أهم ما تيسر للقوات المسلحة العراقية من طائرات سمتيّة (هليكوبتر) مقاتلة، طائرتا (Mi-24) و(Mi-25) السوفياتيتين المسلحتين جيدًا للقتال الجوي الأرضي من ناحية كونهما مسلحتين بصواريخ (UB-32)، لضرب الدروع والتحصينات، ورشاشة مثبتة على مقدمة الطائرة لقتال الأفراد. وكذلك طائرات غزال (Gazelle) الفرنسية المسلحة بصاروخ هوت (HOT) وطائرات (MBB Bo 105) المسلحة بصاروخ هوت أيضًا.

عملت طائرات طيران الجيش في واجبات الإسناد القريب للقطعات البرية كمدفعية متنقلة مرنة وسريعة الحركة ومؤثرة. وامتلكت إيران أيضًا طائرة الغزال وبالتسليح نفسه في المراحل الأولى من الحرب.

ثانيًا: العمليات البحرية

يتشارك العراق وإيران في البحر الإقليمي من ناحية ملكيتهما المشتركة مداخل شط العرب على وفق اتفاقية الحدود الموقّعة

في أيلول/ سبتمبر 1975 المعروفة باتفاقية الجزائر، وعلى الرغم من محدودية البحر الإقليمي العراقي، فإن وجود منشآت التصدير النفطية العراقية العميقة (Offshore) في ميناءي البكر وخور العمية وضع مهمة شاقة على عاتق البحرية العراقية محدودة التسليح، بسبب محدودية البحر الإقليمي، لذلك نجد أن التسليح البحري العراقي لم يكن إلا تسليحًا ساحليًا يتولى مهمات الدفاع الساحلي من جهة البحر والمرتكز على 12 زورق صواريخ من طراز كومار السوفياتي، المسمى بالمشروع 205 والمسلح بأربع قواعد إطلاق لصواريخ سطح - سطح البحرية من طراز (P-15) ذات المدى نحو 100 كلم. وكان لدى العراق عدد من زوارق الطوربيد رباعية القواعد من طراز شيرشين السوفياتية، وثلاث سفن مقاومة الغواصات، وكاسحتا ألغام ساحليتان سوفياتيتان، وعدد من كاسحات الألغام الداخلية اليوغوسلافية المنشأ. وامتلكت البحرية العراقية ثلاث سفن إنزال وفرقاطة تدريبية.

لم تكن هذه القطع البحرية لتشكل تحديًا حقيقيًا للبحرية الإيرانية، عدا ضربات عديدة لزوارق الصواريخ، وتعرُّض هذه الزوارق لضربات إيرانية من زوارق صواريخ إيرانية كانت مسلحة بصاروخ هاربون الأميركي، ومن الطائرات الإيرانية.

أدركت القوات البحرية العراقية نقاط ضعفها البيِّنة في العمل القتالي، وعدم قدرتها بتسليحها الراهن على القيام بتنفيذ المهمة الموكلة إليها، فعملت هيئة الركن البحرية العراقية وبإشراف وتوجيه قائد القوة البحرية والدفاع الساحلي اللواء البحري عبدو

الديري الذي يُعد المؤســس الفعلــي للقوة البحريــة، على إعداد دراسة تحليلية مفصّلة لمسرح العمليات البحرية العراقي، وتوصلت في ضوء هذا التحليل إلى الخلاصات التالية التي تحوّلت توصياتٍ أقرّتها القيادة، وباشــرت البحرية بالتحول من بحرية ســاحلية إلى بحرية أعالي بحار حقيقية.

- إن مسرح عمليات الخليج العربي هو مسرح عمليات بحرية شــبه مغلق، لا يلبي العمــل البحري فيه تحقيــق المصالح القومية العراقية في البحر ولا الدفاع عنها.

- إن تحقيق المصالح البحريــة العراقية يقتضي التواجد بفعل واضح قادر على الردع في منطقة تقع خارج خليج عمان والخليج العربي.

- لذلك سيقسم مســرح العمليات البحري العراقي مسرحين يضمّ أولهما الخليــج العربي لغاية مضيق هرمــز (داخل)، والآخر مســرح عمليات البحر العربي الذي يبدأ من خارج مضيق هرمز في خليج عمان ويستمر إلى البحر العربي (أعالي البحار).

- يتطلب الأمر إعادة النظر في تنظيم وتســليح القوة البحرية العراقية بشكلٍ جذريٍّ وبتســليحٍ حديثٍ، وصرف النظر عن انتظار أن يجهِّزنا الاتحاد السوفياتي بتسـليحٍ بحري حديثٍ، لأن عروضه التسليحية كلها لم تكن لتلبي الطموح الذي يتطلّبه التنظيم الجديد.

- من هنا تــم اتخاذ جملة إجــراءات، منها وضــع متطلبات التســليح والتفاوض عليه مع الفرنســيين أولًا، ثم مــع الإيطاليين

الذين تـــم التوصل معهم إلى اتفاقية تسـليح بحري حديث لتجهيز أسـطولين، أحدهما سيتولى المنطقة (أ) (مسـرح عمليات الخليج العربي) وسـيعتمد على تجهيز البحرية بسـفن حراسـة عددها 6 مسـلحة بصواريخ أوتومات، مـع طيران بحري أساسـه طائرات أوغوستا السمتيّة المسـلحة هي الأخرى بصواريخ أوتومات. ونواة لأسـطول أعالي البحار أساسـه التجهيز بفرقاطات من طراز (لوبو LOPO) المجهزة بالصواريخ نفسـها. ولكل من الفرقاطات وسفن الحراسة القدرة على حمل وتشغيل طائرة سمتيّة بحرية مسلحة على ظهرها. وتم التعاقد بالعقد الضخم نفسـه الذي كلّف في حينه نحو مليار ونصف المليار دولار بأسـعار عام 1979 على سفن الإسناد الفني والإداري كلها. وبوشر بالبناء، وإرسال الطواقم لمواكبة البناء والإشراف عليه والتدريب في جهد متميّز لم يُكتب له النجاح بسبب انـدلاع هذه الحرب وامتناع إيطاليا عن تسـليم الأسـطول. كانت نتيجة الحرب ستختلف لو كان هذا التسـليح متيسرًا للعراق. وهنا ومن باب إسـناد الفضل إلى أهله، لا بدّ من بيان أن الأب الروحي لبرنامج التحديث البحـري الذي كان مدرِّسًـا وموجِّهًا لجيلنا من الضباط البحريين الشـباب، والذي، كما ذكرنا، يُعد بحقّ المؤسس الحقيقي للقوات البحرية العراقية، كان اللواء البحري عبدو الديري الذي مثّل توأمةً حقيقية للبحرية العراقية والبحرية العربية السـورية التي كان رئيس أركانهـا في مرحلة معينة. كمـا أن من المهم بيان الدور البنّاء الذي قام به الأسـاتذة البحريون المصريون الذين قاموا أولًا في منتصف الستينيات بإعداد تقدير موقف مهم لتطوير البحرية العراقية، وهو ما طوّره اللـواء الديري في ما بعد، ثم تولت البحرية

المصرية إعـــداد الكادر الضباطي الشـــاب الذي تحـــوّل إلى قيادة البحرية وقطعاتها في فترة الحرب العراقية - الإيرانية.

- في المجال نفســـه تم التعاقد مع فرنســـا لتأميـــن قوة جوية بحرية لتأميـــن موقف جوي بحـــري ملائم على الخليـــج العربي. نجح العراق في هـــذا المجال بحصوله على طائـــرات الميراج (F-1) وطائرات الســـوبرفريلون البحرية المسلحة بصواريخ جو - بحر أكسوسيت (AM-39).

- ومن ناحية أخرى شُكلت عقدة قيادية لجهد الدفاع الساحلي الذي استند إلى لواء أو لواءي دفاع ساحلي وكتائب مدفعية للدفاع الســـاحلي موجّهة بالرادار، وصواريخ دفاع ساحلي من طراز سلك وورم (HY-2 Silk Worm) الصينية.

نجحت البحريـــة العراقية فـــي أن تثبت وجودها طـــوال فترة الصراع على الرغم من محدودية حجمها وقدراتها وإمكاناتها، لكن الدور الأكبر الذي نفّذته وبتحدٍ كبيرٍ هـــو نجاحها في الإنزال بلواء بحري خلف خطوط العدو على ساحل خور عبد الله ضمن عمليات «رمضان مبارك». كان دور البحرية علـــى صغر حجمها ومحدودية تســـليحها، دورًا متميـــزًا. وإن كانـــت الحرب العراقيـــة - الإيرانية الســـبب الأول الذي كبح المشروع التطويري البحري العراقي، على الرغم من اســـتمرار التواجد الكثيف لأفراد وفنيـــي البحرية العراقية في لاســـبيزيا بإيطاليا، لمتابعة تنفيذ المشـــروع التطويري البحري، فإن مماطلة الجهات الإيطالية في ســـعي ممنهج إلى منع العراق من الحصول على ســـفنه المقاتلة التي تعاقد عليها، كانت السبب الثاني

في إعاقة المشروع. هكذا مات المشروع التطويري البحري العراقي موتًا ســريريًا بعد حوادث الكويت، إذ قُطعت إقامة وتدريب البعثة الفنية الإشــرافية والتدريبية العراقية في إيطاليا وأُعيــد أفرادها إلى العراق. ولا نعلم ما الذي جرى بالمبلغ الذي دفعه العراق من العقد والبالغ نحو 1.4 مليار دولار أميركي بأسعار عام 1979.

ما يســترعي الانتبــاه أن المحتــل جهّز ما تبقى مــن البحرية العراقية بزوارق خفر ســواحل خفيفة، بعد أن استحوذت الكويت على القاعــدة البحرية العراقية الواقعة علــى رأس الخليج العربي، التي تحمل اســمه، وتم التضييق على الفسحة المحدودة من البحر الإقليمي المتبقية للعراق بعد تعديل الحدود مع الكويت من جانب مجلس الأمن.

ثالثًا: حرب الصواريخ

دخلت الصواريخ البالســتية الصراع باعتبارهــا أحد العوامل التي حاول الطرفان من خلالها إحداث تغيير استراتيجي في مجرى العمليات، ووسيلة للوصول إلى النتيجة النهائية التي سعيا إليها في وضع نهاية للحرب تلبي أهداف وطموحات كلٍّ منهما.

قبل الدخول في تفاصيل هذا الاســتخدام نرى من الضروري التعرف إلى هذه الصواريخ ومصادرها. كانت الصواريخ ذات المنشأ السوفياتي من طرازي فروغ (FROG) وسكود هما السلاحان اللذان استُخدما بنطاق واسع في هذه الحرب. ولعل العراق بدأ باستخدام صاروخ فروغ في الجبهة لضرب التحشــدات المعادية وبالأخص

في جبهة ديزفول والخفاجية - البسيتين (الفيلق الرابع). ويبلغ مدى صاروخ (9K52 Luna) المعروف لدى الناتو باسم (Frog-7) نحو 60 -70 كلم، ويزن رأسه الحربي نحو 450 - 550 كلغم. يتميز هذا الصاروخ بعدم دقة إصابة الهدف، استعمله العراق بكثافة حيال الأهداف العسكرية في العام الأول من الحرب، إلا أنه اضطرّ إلى تحويل استخدامه ضد المدن عندما بدأت إيران هذه الحرب ضد العراق. وكدليل على ذلك أصاب هذا الصاروخ ضاحية إندمشك الصغيرة نسبيًا، في حين على ما يبدو أن العراقيين استهدفوا مدينة ديزفول المجاورة والأكبر والأكثر أهمية[6].

على الرغم من محدودية عدد صواريخ سكود (R-17 Scud-B) التي كانت تتوافر للقوات المسلحة العراقية في بداية الحرب، إذ لم يكن لديها إلا تسع قاذفات سكود منظّمة بكتيبة صواريخ لم تكن جاهزة للاستخدام القتالي إلا في تشرين الأول/ أكتوبر 1982، بدأ استخدام أول صاروخ في السابع والعشرين من الشهر المذكور. يُعد هذا الصاروخ من الصواريخ التي عوّل عليها الاتحاد السوفياتي السابق في فترة استعار الحرب الباردة، وكان أدخله إلى الخدمة في عام 1967 في الميدان الأوروبي، تحت مسمى (R-17E, R-300) وتُبيّن التسمية الأخيرة مداه أي نحو 300 كلم. والصاروخ هو صاروخ بالستيّ يعتمد في توجيهه نحو هدفه على ثلاثة جايروسكوبات، تتولى تحديد زاوية الارتفاع والانقضاض ومنحنى الطيران والمدى، كما يحوي معدات توجيه داخلية تعتمد

(6) Cordesman and Wagner, vol. 2: *The Iran-Iraq War*, pp. xiii-36.

النفث النافوريّ لقيادة الصاروخ في أثنــاء مرحلة الطيران، من هنا فإن هذا الصاروخ أكثر تطــورًا وتعقيدًا من صــاروخ فروغ (لونا) الذي يُعتبر بدائيًا قياسًــا عليه. يُســجَّل للعراق أنه أطلق سلسلة من هذه الصواريخ يبلــغ عددها الإجمالي 361 صاروخًا، شــهد منها عام 1988 وهو عام الحســم النهائــي 193 إطلاقًا. هدف العراق من اســتخدامه هذه الصواريخ التي بدأ الجانبان اســتخدامها ضد مدنيي الطرف الآخر، إلى تدميــر الروح المعنوية للطرف المعادي. لهذا كانــت أهداف العراق الأولية المــدن الإيرانية التي تقع خلف خط القتال، والمُســتخدمة كمناطق تحشــد وانطــلاق للمتطوّعين المدنيين (الباســيج) بقيادة رجال دين صغار، وكان الجميع وقودًا لهذه الحرب. لذلك كانت الأهواز وديزفول وخرم آباد وبروجورد أهدافًا دائمة للضربات العراقية. ومع ذلك استهدف العراقيون مدنًا في العمق الإيراني وصولًا إلى طهــران وقم المركز المقدّس ومقرّ الحوزة العلمية الشيعية في إيران، بعد أن نجحوا في تطوير صاروخ سكود ليصل إلى مدى 600 كلم، وسمّوه باسم أقدس أئمة الشيعة رمز التضحية وهو الإمام الحسين ليرمز إلى أنهم يضربون الإيرانيين برمزهم الثاوي في كربلاء في العراق، ثم ما لبث التصنيع العسكري أن أوصــل المــدى إلى 950 كلم وســمّى هــذا الطــراز الجديد «العباس» الأخ غير الشقيق للإمام الحســين الذي استشهد معه في معركة الطف - كربلاء، ويحمل هو الآخر معنىً رمزيًا لدى الشيعة في كل مكان.

يبدو أن عمليــة التطوير التي أعطت العراق يــدًا عُليا ومرونة في استهداف مراكز التجمّع السكانية الكبرى، أخذت بالحرب إلى

كل بيت في طهران بعد أن عاشت سبع سـنوات من سني الحرب الثمانية وهي بعيدة عن تأثيراتها المباشـرة، فـي حين كانت بغداد والبصرة وكركوك والموصل في قلب هذه المواجهة.

يبيِّـن أحد المصـادر أن عـدد الصواريخ العراقيـة من طراز «الحسين» التي أطلقت على طهران كان نحو 160 صاروخًا برأس حربي يزن نحـو 190 كلغـم، أي إن طهران تعرضـت لأكثر من ثلاثين طنًا من المتفجرات خلال الأسـابيع السـبعة الحاسمة التي أنهت الحرب[7]. وعلى الرغم من أن هـذا الرقم يُعد متدنيًا مقارنة بما ألقي على منطقة هانوي - هايفونغ في الحرب الفيتنامية والذي بلغ 20000 طن، حـدث التأثير المطلوب، أي الإخلال بمعنويات الجماهير والتأثير سلبًا في الروح القتالية والعزيمة والرغبة في الفداء والاستشهاد التي امتاز بها المتطوِّع الإيراني طوال فترة الحرب، فهو كان يتقدّم ماشـيًا يدوس على زميله الذي استشهد قبله جاعلًا منه منصة له ليقترب من كربـلاء[8]... وكحصيلة يمكن اعتبار هجمات العراق بصواريخ «الحسـين» في ربيع وصيـف 1988 جزءًا منفَّذًا بحذاقة من خطط معارك التحرير الكبرى التي ختمت هذه الحرب. كان بعض المحلِّلين والدارسين العسكريين قد بيّن في أوراق بحثيّة أن الستين يومًا التي استُخدمت فيها الصواريخ في حرب المدن ضد إيران حققت أكثر ممـا حققته القوات الجويـة العراقية في خمس

(7) Thomas McNaugher, «Ballistic Missiles and Chemical Weapons: The Legacy of the Iran-Iraq War,» *International Security*, vol. 15, no. 2 (Autumn 1990), p. 11.

(8) Cordesman and Wagner, vol. 2: *The Iran-Iraq War*, pp. xiii, 35 and 37.

ســنوات من عمر الحرب، وجعلت المدنيين الإيرانيين يشكّون في قدرة نظام طهران على حمايتهم[9].

أما إيران فبدأت استخدام صواريخ ســكود متأخرة نسبيًا عن العراقيين، وإن كانت قد اســتخدمت ســكود - بي قبل استخدامها صواريـــخ إيرانية الصنـــع محـــوّرة، أطلقت عليها اســـم «عقاب». حصلت إيران على كميات من صواريخ (Scud-B) من سورية وليبيا البلدين العربيين اللذين شـــذّا عن الإجماع العربـــي المؤيد للعراق في موقفه مـــن الحرب، ثم ما لبثت وحصلـــت على 100 صاروخ (Scud-B) من كوريـــا الشـــمالية أوائل عـــام 1988، وضربت منها سبعين صاروخًا مســـتهدفة بمعظمها بغداد[10]. وعلى الرغم من أن إيران كانـــت تتميز على العراق كثيرًا في الموقـــف الجيوبوليتيكي، فمدن العراق كلها كما سبق وذكرنا تقع على العموم ضمن مديات الصواريخ الإيرانية، وتقع البصرة ضمن مديات مدفعيته المتوســـطة والثقيلة، لم تتمكّن من الاستفادة من عنصر الفائقية الجيوستراتيجية العالـــي في حربها مـــع العراق، ربمـــا لغياب العقليـــة ذات القدرة على التخطيط الاســـتراتيجي القويم. ويمكن القـــول وبكل ثقة إن اســـتهداف إيران البصرة طوال فترة الحرب، واســـتهدافها المدنيين في مدن الجنوب وجلهم من العرب الشيعة أتى بأثر عكسي، جعل من هؤلاء الذين كانت تسعى إلى كسب ودهم وأخذهم إلى جانبها،

---

(9) W. Jack Dees, *Iraqi Military Effectiveness in the War with Iran*, Middle East Special Studies, 1989-1991 supplement; 4. Special Studies Series (Newport, RI: Naval War College, [1990]), p. 17.

(10) McNaugher, p. 10.

يقفون منها موقف المتوجس الذي يتفهّم خطاب السلطة في العراق بأن المســتهدف إيرانيًا من هذه الحرب، هو العــراق دولةً وكيانًا، وليس مجرد شــخص الرئيس ونظام الحكم. وهذا ما يفسر القتال الشــرس الذي خاضه الجندي العراقي بعد تحــول العراق للدفاع وانسحابه من الأراضي الإيرانية في عام 1982.

الدروس المستفادة من حرب الصواريخ

- شُــنّت هذه الحرب مــن الطرفين لإحــداث تحوّل جذري في قناعات المدنيين تجعل منهــم إما مناصرين للطرف الآخر وإما محايدين. وفشــلت إيران في هذا فشلًا ذريعًا، إذ لم تستطع تحويل قناعات العــرب العراقيين الشــيعة إلى جانبها، حتــى في أضعف المراحل التي مرّ بها النظام والوضع العســكري العراقي في أعوام الانسحاب العراقي من الأراضي الإيرانية والتعرض الإيراني واسع النطاق على الجبهتين الجنوبية والوسطى في عام 1982، واحتلال الإيرانيين الفاو في عام 1986.

- على الرغم من أن التأثير التدميري لهذه الصواريخ محدود، فإن تأثيرًا نفســيًا تذبذب بيــن مرعب في أوائل أيام الاســتخدام، واعتيــادي في مرحلة الاســتنزاف، ومــا لبث أن تصاعــد في أيام الحرب الأخيرة عندمــا وصلت الصواريخ إلــى الداخل الإيراني، فصار تأثيرها مرعبًا.

- كان بإمكان إيران أن تؤثّر تأثيرًا أكبر في المدنيين العراقيين

لو أنها استفادت مما قدّمته لها الجغرافيا من قرب للتركيز السكاني العراقي من حدودها.

- حقق العراق بتطويره مديــات صواريخ (Scud-B) لتصل إلى طهران وقم وأصفهان مباغتة استراتيجية أتت بنتائج ممتازة لمصلحة التخطيط العراقي العام لإنهاء الحرب لمصلحته.

- اســتُخدمت هذه الصواريخ بالرؤوس التقليدية ولم يُسجل استخدامها لحمل الرؤوس الكيمياوية طوال الحرب.

- كانت الحرب دافعًا للطرفين إلى تطوير هذا الســلاح، الأمر الذي ســتكون له انعكاســات مهمة في المســتقبل على الاستقرار الإقليمي.

الفصل السابع

الدروس المستنبطة من هذه الحرب

لعله من الصعوبة بمكان سبر أغوار حرب طويلة ومعقدة مثل الحرب العراقيـة - الإيرانية التي طالت أكثر مما يجب، والتي أدت العواطـف والأيديولوجيا فيها دورًا كبيـرًا، واقتربت من أن تتحوّل حربًا عامة اسـتخدم فيها الطرفـان كل ما كان بأيديهمـا من تقانة وتسـليح، وكلّ ما تمكّنت الآلة الدعائية عند كل منهما والشـحذ المعنـوي والتأليب العقائدي على فعله لتجنيد الآلاف من شـباب البلدين للقتال، في حرب بدأت نزاعًا حدوديًا وأيديولوجيًا، وانتهت حربًا على الدرجات والصعد كافـة. ومع كل هذه التعقيدات كانت المهنية العسـكرية حاضرة لتقوم بواجبها في وضع كان الوطن فيه مهدّدًا في وجوده وتراثه وهويته. يمكننا من خلال التحليل المعمق التعرف إلى هذه الدروس، وسـأركّز على الأداء العراقي الذي كان موضوع مذكرات الخزرجي، مع الإشـارة إلـى الأداء الإيراني في المواقع التي تستدعي ذلك.

أولًا: الدروس

- **الغايـة الوطنية**: تمثّل الغاية الوطنية الرسـالة التي تؤمن بها الأمة وتبني على أساسها مرتكزات سـلوكها في المجتمع الدولي من جهة، وأسس بنائها قدراتها وإعدادها لأجيالها من جهة أخرى.

وإذا ما دققنا النظر في الغاية الوطنية لكلا البلدين المتصارعين سنجد أن الغاية الوطنية للعراق كانت الإيمان بوحدة الأمة العربية من محيطها إلى خليجها، والعمل الدؤوب للوصول إلى هذه الوحدة ولو على مراحل. ووجدنا كيف أن الخزرجي أشار في مذكراته إلى ما كان يفكر به الرئيس القائد العام من رؤية لمستقبل الأمة في لقاءٍ جمعهما معًا. وكان للقضية الفلسطينية مكان مركزي في الغاية الوطنية العراقية، وصُمّمت الدولة وأجهزتها على أساس رفع الحيف والظلم الذي أحاق بالأمة نتيجة زرع الكيان الصهيوني كنبتةٍ غير مرحَّبٍ بها وفي بيئةٍ ليست بيئتها. وهنا أيضًا أشار المؤلِّف إلى رؤية القائد العام تجاه الصراع العربي - الصهيوني التي استمع إليها في اللقاء نفسه آنف الذكر. ما تبقى هو مسؤولية الدولة عن بناء الأجيال بناءً سليمًا وتربية جيلٍ مؤمنٍ بالله وبرسالاته. وكان الحفاظ على وحدة التراب العراقي وسلامته الإقليمية ركنًا مهمًّا من أركان الغاية الوطنية العراقية. لم يكن في هذه الغاية الوطنية والسياسات والاستراتيجيات التي انبثقت منها ما يشير من قريبٍ أو بعيدٍ إلى عداءٍ موجّه إلى إيران ككيانٍ أو شعب. كما أنه لم تكن للعراق مشكلة مع الخميني نفسه الذي تمتع بضيافة العراق أربعة عشر عامًا، في عشرة منها كان العراق تحت حكم البعث. ولم يحاول العراق مرة مجرد الطلب أو الضغط على الخميني لإصدار بيانٍ يدين فيه موقف الشاه من العراق أيام التدخّل الإيراني في الشأن العراقي، لذلك لم يكن العراق ينظر إلى إيران كعدو أبدًا، بل باعتبارها بلدًا مسلمًا جارًا، لكن هناك مشكلات حدودية معه وأخرى تخصُّ علاقاته العربية مثل قضية الجزر، وكان العراق يرمي

إلى حل هذه الخلافات بالطرائق السلمية. على العكس كانت إيران في أيام الشـــاه تفكر بعقلية إمبراطورية مزعومة، لا وجود لها على أرض الواقع، ولا توجـــد آفاق حقيقية لتحقيقها. وفـــي أيام الثورة الإسلامية كانت تفكر على أساسٍ إســـلامي أمميٍّ بصفتها وليّة أمر المســـلمين، وهنا كان العراق في مركز اهتمامها، وكانت رســـالتها واضحـــةً، وتتمثَّل في قلب نظـــام الحكم واســـتيلاء حلفائها عليه، وإقامة الجمهورية الإســـلامية فيه. وهو أمر حققـــه لها الأميركيون في ما بعـــد، وأطلقوا يدها في العراق بحيـــث أصبح الحال على ما نرى. من هنا كان العـــداء. انطلق العراق نحو المطالبة بأراضيه التي اعترفت المعاهدات والاتفاقات المعقودة بينه وبين إيران بعائديتها إليـــه، وبالمقابل انطلقت إيـــران الخميني بالتحريـــض على الثورة الإســـلامية في العراق وتصدير الثورة إليه كأول هدفٍ يسهل بعده نشـــرها في الخافقين. هذه هي الخطورة التي تشكلها الغاية الوطنية لأي بلد على سياســـات واســـتراتيجيات البلد المعني في علاقاته الدوليـــة والإقليمية. أثبتت الحـــرب العراقيـــة - الإيرانية والعملية الاســـتباقية التي شـــنّها العراق أن الخطورة التـــي كان نظام الحكم العراقي يتحسَّســـها من تصدير الثورة هي خطـــورة في مكانها، بعد أن سهَّل الأميركيون لإيران الاستيلاء الفعلي على مقاليد الأمور في العراق بتسليم حكمه لحلفائهم.

- مبادئ الحرب: مبادئ الحرب هي دســـتور المهنية القتالية العسكرية، لازمت أعمال المفكِّرين العسكريين منذ صن تسو حتى ليدل هارت إلى الوقـــت الراهن. في الحرب العراقيـــة - الإيرانية كانت المبـــادئ الحاضرة هـــي انتخاب وتوخّي الهـــدف والتعاون

والمباغتــة والمعنويــات والعمل التعرضــيّ والتحشّــد والمرونة والاقتصاد بالجهد والأمن والشــؤون الإدارية. هذا بحسب العقيدة القتالية البريطانية التي يتّبعها العراق. إذا ما حاولنا تتبّع أين نجحت وأين أخفقت القيــادة العراقية في هذا المجال؟ ســنجد أن توخّي الهدف لم يكن واضحًــا في الصفحة الأولى مــن الحرب، لم يتم الدخول إلــى الأراضي الإيرانيــة، ولم يتم الانســحاب منها، وما هي الأســباب؟ كل هذا كان مبهمًا. كما أن هدف الحرب لم يكن واضحًــا أيضًا. برأينا اتُخــذ هدف إنهاء الحــرب لمصلحة العراق كهدف مركزي، ثم تمحــور القتال وتوجيه الجهد لبلوغه بأســرع ما يمكن. ونجــح العراق في أكثر من موقفٍ فــي تحقيق المباغتة، خصوصًا في الصفحة النهائية، وكانت المرونة وقابلية الحركة مدامة بشــكلٍ جيدٍ، وبُذلت الطاقات للاقتصاد بالجهــد بتعظيم القدرات لسد الفَجوة الكبيرة مقابل التفوق البشري الإيراني 1:3.

- المعرفة: شــهدت الحرب تصاعد المعرفة المهنية والتقنية بوتيرة معروفة ومرصــودة، إلا أن طول فتــرة المواجهة في مرحلة الاســتنزاف أجبر القيادة العراقية على التضحية بالمعرفة والمهارة المهنية لمصلحة ســد النقص من جراء الخسائر الكبيرة التي عاناها كادر الضبــاط العراقي، ونجمت عن ذلك إخفاقات على مســتوى الجبهة. وســارعت القيــادة العراقية إلى معالجة هــذه الحالة عند التخطيط لتحوّلها إلــى التعرّض العام في نهاية الحرب، الأمر الذي رفع الأداء المهني إلى درجة عالية جدًا. ومن أهم الأمثلة على ذلك تبديل قائد الفيلــق الرابع بآخر على الرغم مــن كفاءة الأول، لكن البديل كان يعرف المنطقة وقاتل فيها.

- وحدة القيادة: عانت القوات المسلحة العراقية مشكلة تدخّل القيادات الحزبية في مفاصل مهنية ليست لديها معرفة بها، فأدى التدخل إلى تـأكّل المعنويات والثقة بهذه القيادات. حسم القائد العام الأمر بأن أناط بالقادة العسكريين فحسب مهمة إدارة المعارك، وأعطاهم الحقّ بإصدار الأوامر إلى وحداتهم، ومع ذلك ظل شبح تدخّل القيادات الحزبية في الشأن المهني يلوح بين حينٍ وآخر.

- المرونة وقابلية الحركة: كانت الحرب العراقية - الإيرانية مناسبةً ممتازةً لفحص قدرة القوات ومنظوماتها الساندة على النقل على مختلف الجبهات، كما كانت فرصةً جيّدةً لفحص كفاية واستيعاب الطرق ودرجة تحمل الجسور. نجحت القوات المسلحة العراقية في تحقيق مناورات تنقّل استراتيجي وعملياتي على درجة عالية من دقة التوقيت وأمن القطعات والاستفادة القصوى من جهد النقل المتيسر في القطر، إلى الحد الذي مكّن قوة فيلق من الانتقال بإنذارٍ قد لا يزيد على 24 ساعة في بعض الحالات. نرى أن التنقل بفيلقٍ والاقتران (التجحفل) (Grouping) بإنذارٍ قصيرٍ كانا أحد أهم الإنجازات العسكرية في النصف الثاني من القرن المنصرم.

- الأمن: في العلم العسكري ينقسم الأمن أربعةَ أقسام، أمن الأشخاص، وأمن المعدات، وأمن القطعات، وأمن المعلومات. في هذا المجال رأينا كيف أن هذا المبدأ جرى تنفيذه بحصافة، فلم يكن هناك هروب إلى جانب العدو إلا في حالاتٍ محدّدةٍ زمنيًا وظرفيًا. كما لم يفرّ أحدٌ بسلاحٍ أو معداتٍ قتاليةٍ لتسليمها إلى العدو، ولم تتعرض القطعات، ولا سيما في مراحل الحرب الأخيرة، لأي خرقٍ

أمنيٌ. يذكر الخزرجي في مذكراته كيف تمت مخادعة الملحق العسكري الأميركي وتشتيت انتباهه عن الهوية الحقيقية للقطعات المتنقِّلة على الطريق.

- الاستفادة من التقانة الحديثة: على الرغم من أن بعض المحلِّلين الغربيين أخذ على العراقيين (والإيرانيين أيضًا) عدم قدرتهم على التفاعل مع معطيات التقانة الحديثة، وضرب أمثلةً على ذلك بقصورٍ في استخدام معدات الحرب الإلكترونية، أو بعدم قدرة الطوائف الأرضية على تهيئة وإعداد العتاد (الذخيرة) عند تحميله إلى الطائرات، الأمر الذي أدى إلى عدم انفجارها على الهدف، نرى نحن، مع الاعتراف بأن الإعداد الفني والمهني مع معدل الخسائر في الحرب، وطول مدّتها، قد تنتج جميعًا حالة من هذه الحالات، أنها حالة ليست حكرًا على القوات المسلحة العراقية، بل تشترك فيها كل الجيوش. وتكفي معرفة حجم الأخطاء الجسيمة التي ارتكبتها القوات الأميركية الغازية في عام 2003، وضرب الطراد الأميركي طائرة مدنية بريئة في بندر عباس فور إقلاعها في نهاية عقد الثمانينيات من القرن المنصرم، فهذه كلّها تدلِّل على أن الخطأ البشري في التعامل مع معطيات التقانة في أحوال الحرب يكاد يكون عاملًا إنسانيًا شاملًا.

ثانيًا: الفريق الخزرجيّ والتطور في الفكر العسكري العراقي

مما لا شكّ فيه أن الفريق الخزرجي أدخل إلى الفكر العسكري العراقي تطورات مدهشة. صحيح أنه لم يحد عما ثبتته

كتب وكراسات القتال التي تعتمدها القوات المسلحة العراقية في إعداد قواتها للقتال، لكن الإضافة الجدية الحقيقية التي أضافها هي إعادة التركيز على تدريس واعتماد ما جاء في هذه الكتب والكراسات التي كثيرًا ما أُهملت نتيجة استخدام الجيش العراقي في واجبات الأمن الداخلي منذ اندلاع الثورة الكردية في أيلول/ سبتمبر 1961، ونقل ما جاء فيها إلى غرف وقاعات التدريس، وساحات التدريب وميادين التمارين التعبوية السنوية.

ليس هذا فحسب، بل استنبط معادلةً مهمة تُعين على التوصل إلى الاستفادة القصوى من الجهد القتالي المطلوب.

أشرت في تقديمي مذكراته إلى نظريّة «الجندي والسلاح والأرض»، أي السعي إلى تطبيق كل منها بالآخر وإنشاء علاقة سوبرانيطيقيّة يتمخض عنها الحصول على الأداء القتالي الأفضل. كانت هذه النظرية هي التي استنبطها منذ تولّيه مناصب القيادة الدنيا بصفته قائدًا للفوج المظلي، صعودًا في تسلسلات القيادة عندما تسنّم منصب قيادة لواء ففرقة ففيلق، ثم تولّيه المنصب القيادي المهني الأعلى في القوات المسلحة العراقية، وهو منصب رئيس أركان الجيش، باعتبار أن منصب القائد العام ونائبه هما منصبان سياسيان، إذ كان يتولى الأول رئيس الجمهورية، ويتولى الثاني وزير الدفاع.

لو حاولنا أن نرصد التشكيلات التي قادها الفريق الخزرجي لوجدنا صدى هذه النظرية والمعادلة الدالّة عليها واضحةً، فالجندي والسلاح والأرض هي أضلاع مثلث البيئة القتالية، وبتفاعلها في

ما بينها تتقـــرر نتيجة المعركة ثـــم الحرب الدائـــرة. لاحظنا ذلك في معركة تل عنتر - تل المال التي شـــارك فيهـــا الفريق الخزرجيّ وفوجه في حرب تشرين 1973 المجيدة، كما شهدناها في المعارك والمناورات الخمس الأخيرة في الحـــرب العراقية - الإيرانية التي أشرف عليها تخطيطًا وتدريبًا وقتالًا.

نشـــير في هذا الكتاب إلى أن الفريـــق الخزرجيّ أقرب إلى فكـــر الجنرال أرويـــن رومل منه إلـــى فكر الجنـــرال مونتغمري. والواقع أنـــه كان يميل إلى فكـــرة الحرب الصاعقـــة (Blitzkrieg) التي ابتدعها الألمان، ولعل هذا ما ترسّـــب في بناء شـــخصيته، إذ كان متحمسًـــا للألمان منـــذ يفاعته، إضافةً إلـــى كراهيته الإنكليز الذين أســـروا والده ونفوه. هنا مـــن المفيد ذِكـــر أن أنصار فكر مونتغمـــري الذي يركز على التأني وصـــرف الكثير من الوقت في تأمين التحضيرات، والتأكد منها والتدقيـــق عليها، ثم التحرّك بعد ذلك، كانوا يمثّلون المدرسة السائدة في الفكر العسكري العراقي التي كان عرّابها أحد الضباط العراقيين الأفذاذ وهو الفريق الأول الركن عبد الجبار شنشل، وعلى هديها سار رؤساء الأركان الذين خلفوه في المنصب، حتى تولّـــى الفريق الخزرجي هذا المنصب، فتحوّل نحو تطبيق فكره العســـكري بعد أن حاز تأييد القائد العام وموافقته.

كثيرةٌ الإنجازات في هذا المجـــال، ولعل من المفيد بيان أن الفريق الخزرجي بعد النصر في الحرب العراقية - الإيرانية أشرف على ما لا يقلُّ عن سبع وأربعين دراسة تحليلية لمختلف فاعليات

القتال على مستوى التشـــكيلات الكبرى (الفيالق)، ومستوى أداء الصنوف (الأســلحة القتالية)، والخدمات (الإســناد اللوجستي). وكانت هذه الدراســات قد أنتجت الكثير من الدروس المستنبطة من الأداء القتالي، بما كان ســيطوِّر أداء القوات المسلحة العراقية لولا الانتكاسة التي مُنِي بها القطر منذ فرض الحصار الدولي غير الشرعيِّ عليه، حتى كارثة الغزو والاحتلال في عام 2003.

ثالثًا: الولايات المتحدة الأميركية والحرب

اتخذت الولايات المتحدة الأميركيــة موقفًا انتهازيًّا من هذه الحرب، فهــي على وجه التحديــد مُنيت بخيبة كبيــرة في إيران، حيث انتُهكت ســفارتها وصودرت وثائقها ذات الأهمية الكبيرة. ولن ننســى العلاقات الحميمة التي كانت تربط الولايات المتحدة الأميركية بنظــام الشــاه، والتي لم تشــفع له، بــل كان الموقف الأميركي الذي قــام به الجنرال هويزر نائــب القائد العام للقوات الأميركية في أوروبا يرمي إلى تحييد مؤسســة القوات المســلحة المؤيدة للشــاه، وضمان عدم قيامها بقمــع المتظاهرين، أو القيام بانقلاب عســكري الأمر الذي ســهّل على الخمينــي القدوم من باريس إلى طهران.

بعد أن فشــلت عملية إنقاذ الرهائن التــي خططت لها قوات التدخل الســريع الأميركيــة، وســقطت طائراتهــا الهليكوبتر في صحراء طبس في إيران، لم تجد الولايات المتحدة من وســيلة إلا المفاوضات الســرية لإطلاق ســراح مواطنيها. من هنا فإن اندلاع

هذه الحرب شــكّل فرصة لها للّعب على حبال علاقات القوة بين البلدين، فجاء إســراعها إلى تزويد الإيرانيين بالأسلحة في العملية التي أُطلق عليها اسم إيران - كونترا أو «إيران غيت»، وكذلك تزويد إيــران بمعلومات عن انفتــاح القوات العراقية. ورصــد العراقيون وتأكدوا من حالتيــن بالتحديد، هما المخادعة التــي تعرضت لها الاســتخبارات العراقية عشــية احتــلال الفاو، وتزويــد الإيرانيين بتفاصيل انفتاح القوات العراقية لتنفيذ عملية «توكلنا على الله - 1» التي تحقق بها تحرير الشلامجة.

يحاول الأميركيون من خلال محلليهــم وكتّابهم الإيحاء بأنه كان لهم دور في التعجيل بإنهــاء الحرب من خلال جملة فاعليات بحرية نفذوهــا في الخليج العربي، مثل رفــع العلم الأميركي على ناقلات النفط الكويتية، وضــرب منصتي إنتــاج نفطيتين إيرانيتين في الخليج العربي، وضرب إحدى الناقلات. ولربما نســي أولئك الباحثون ضرب الطــراد الأميركي الطائرة المدنية الإيرانية من طراز إيرباص والضحايا المدنيين الأبرياء الذين قضوا من جراء ذلك.

لم يضع حدًا لهذه الحرب إلا العراقيون الذين جادوا بدمائهم زكيةً للدفاع عن حياض وطنهم، والقادة الأفذاذ الذين قادوا أولئك الرجال وهم كثرٌ، وعندما نستذكرهم ونشــيد بتضحياتهم لا ننسى أنه كان على رأس هرم القيادة العســكرية المهنية رجل فذ كالفريق الأول الركن نزار عبد الكريم الخزرجي.

رابعًا: الحرب الكيمياوية وحلبجة

يوصم العراق منذ بدء الحملة الإعلامية والغربية لـ «شيطنته» بأنه استخدم السلاح الكيمياوي، وعلى نطاق واسع، ضد الإيرانيين وضد شعبه. ويشـيرون إلى حلبجة كمثل على هذا الاستخدام غير الإنساني لسلاح من أسـلحة التدمير الشـامل حرّمته لوائح دولية. ناقش الخزرجي في مذكراته قضية السـلاح الكيمياوي، وأسطورة ضرب العراقيين حلبجة بالأسـلحة الكيمياوية، وليس لدي المزيد لأضيفه، لكنني سأكرر الاستشهاد بمصادر أميركية معتمدة تشير في ما يخص حلبجة بعد الفحص والتمحيص الـذي قامت به جهات أميركية علمية وسياسية، إلى أن نوع العامل الكيمياوي السام الذي ضُربت بـه حلبجة لم يكن ينتجه العراق، وإنمـا تنتجه إيران، وهنا بودي إيراد جملة بليغة التأثير أوردها أنتوني كوردسـمان وأبراهام واغنر فـي كتابهما الذي رجعنـا إليه أكثر من مـرة وفي تقديمهما له[1]: «... هرب المدنيون الأكراد من البلدة (حلبجة) باتجاه العراق بدلًا من إيران، بعد سقوطها بيد الإيرانيين ونتيجة خوفهم من غيمة بيضاء مشـتعلة، فكان أن وجّه الإيرانيون قذائف مدفعية مشـحونة بغاز سـيانيد الهيدروجين، وإن غاز السيانيد تسبب في مقتل معظم القتلى، وسـاهم في العديد من الإصابات. وألقت إيران اللوم على العراق في تلفزيونها الرسمي».

(1) أنتوني هـ. كوردسـمان وأبراهام ر. واجنر، دروس الحرب الحديثة، ترجمة كلية القيادة والأركان، الإمارات العربية المتحدة، ص 644.

الشواهد على عدم استهداف العراق البلدة كثيرة، ويكفي أنها لم تكن على جدول أعمال أيٍّ من الوفود الأميركية الزائرة العراق قبل آب/ أغسطس من عام 1990. فضلًا عن التدقيق الذي أجراه الأميركيون وعرض بليتيير نتائجه في كتابه، ومقالات كثيرة أشير إليها في هوامش مذكرات الخزرجي.

الحرب الكيمياوية سلاح بشع فعلًا، كما أنه سلاح لا يتمتع بالقدرة على حسم المعارك إلا بعد إعداد عملياتي ميداني كبير، وهذا ما لم يتوافر للعراق. من هنا كان استخدامه على الجبهة في أثناء القتال ومن جانب الطرفين كسلاح مؤثّر في المعنويات بالدرجة الأولى. وكما قال الخزرجي إن الأيام هي وحدها الكفيلة بكشف المستور. وتكفينا الإشارة إلى قيام سكان حلبجة بتظاهرات وهدمهم النصب الذي أقيم لتخليد الشهداء وجعل الجريمة باقية في الأذهان لشيطنة العراق في عام 2009، عندما تيقنوا أنهم ونصبهم بضاعة في مزاد سياسي. رحم الله مواطنينا شهداء حلبجة فهم أولًا وأخيرًا مواطنون عراقيون شرفاء وأصيلون.

خامسًا: خسائر الطرفين

لم تكن هذه الحرب تمثّل مثالًا متميّزًا لاستنزاف الموارد فحسب، بل وللسعي المتعمد من أحد طرفي الصراع إلى إطالة أمدها، بأمل كسر تصميم الخصم على خوضها. من هنا تصرّف الخصم (العراق) بأقصى ما تمكّنه قدراته وباللجوء إلى أفضل ما تؤمّنه التقانة العسكرية من وسائل قتال بأمل استخدامها وبكثافة

لإجبار الخصم (إيران) المصمم على إطالة مدة الصراع على القبول بوقف الحرب واللجوء إلى طاولة المفاوضات. وعندما جفّت منابع قدراته المالية لجأ إلى الاستدانة والاقتراض من أشقاء ودول أجنبية ومؤسسات مصرفية عالمية، فساعد هذا في خلق أزمة لاحقة، ساهم سوء إدارة ملفاتها في الإجهاز على قدراته الاقتصادية بالكامل.

على الرغم من أن صرفيات العراق على التسلح فحسب، وهذا ليس الفاتورة المالية كلها التي تحمّلها، تشير بحسب دراسة مرفوعة إلى الكونغرس الأميركي عن حركة نقل الأسلحة، على مستوى العالم للأعوام 1980 - 1987، إلى أن العراق صرف على التسلح في هذه الفترة ما معدله 395 في المئة أكثر مما صرفته إيران (في الفترة نفسها) التي شكّل إنفاقها على التسلح ما معدّله 26.6 في المئة من مجمل إنفاق العراق على التسلح[2]، فإن هذا لا يعني أن إيران كانت الأكثر حكمة في الإنفاق، ذلك لأن إنفاق إيران القليل قابله دماءٌ إيرانية شابة سُفكت لتعويض النقص التقني في نوعية الأسلحة.

ألقت هذه الحرب بكلكلها على عاتق البلدين وشعبيهما وبنيتيهما الارتكازيتين وأرصدة حساباتهما الجارية والاحتياطية، حتى أشرفا في نهايتها على الوصول إلى الخطوط الحمر من الناحية الاقتصادية.

---

(2) للاطلاع على تفاصيل الإنفاق على التسلح وبحسب الدول، انظر: Richard F. Grimmett, «Trends in Conventional Arms Transfers to the Third World by Major Supplier, 1980-1987,» (Congressional Research Service Report; 88-352, Washington, DC, 9 May 1988).

وعند محاولة التعرف واستذكار الخسائر البشرية التي مُني بها البلدان، يُقدّر أنتوني كوردسمان وأبراهام واغنر هذه الخسائر بما يتراوح بين نصف مليون ومليون قتيل، وبين مليون ومليوني جريح ومصاب، وبخمسة وأربعين ألف أسير حرب، ومليونين ونصف المليون مشرد[3]. وتشير إحصاءات أخرى إلى أن العراق تحمّل مئة وخمسين ألف شهيد، وضعف العدد من الجرحى والمعاقين[4].

على صعيد تدمير البنى الارتكازية التي عاناها البلدان، ليست هناك أرقام قاطعة بالمبالغ المقدَّرة، وإن أشار بعض التقادير إلى أن ما تحملته إيران يفوق الـ 100 مليار دولار تطالب بها العراق. ولم ينم إلى علمنا ما تحمّله العراق، على الرغم من أنه بدأ في إعادة الإعمار فور انتهاء الحرب، ومنها إعمار البصرة والفاو اللتين أصابهما التدمير بشكل كبير.

(3) Anthony H. Cordesman and Abraham R. Wagner, *The Lessons of Modern War*, 4 vols. (Boulder, Colo.: Westview Press; London: Mansell Pub., 1990-1996), vol. 2: *The Iran-Iraq War*, Introduction, pp. 2-3.

(4) *TNDM Newsletter*, vol. 2, no. 3 (December 1997), pp. 10-13.

خاتمة

لم تكن هــذه الدراســة الطويلــة نســبيًا تكملــة لمذكرات الخزرجي، وإنمــا محاولة لتوثيق هذه الحرب بمــوازاة ما جاء في الرواية الرصينة التــي يقدّمها لنا رئيس الأركان الســابق. وهي في كل الحالات اجتهادات شخصية أتحمل مسؤوليتها وحدي. ولعل ما يشفع لهذه الدراسة أنها التزمت القواعد الأكاديمية بصرامة ومن دون انحياز إلى وجهة نظــر بعينها، بل تركت الوثائق تتحاور في ما بينها وقدمتُ رؤيتي فيها اعتمادًا علــى إمكاناتي التحليلية وخبرتي المستقاة من معايشتي اليومية، طوال فترة هذه الحرب الضروس.

في الخاتمة، من ذهب ضحية هذه الحــرب من طرفي القتال كان يقاتل دفاعًا عن قضية يؤمن بها، فله الرحمة. كم كنا نأمل (ولا نزال) في أن تسود بين العراق وإيران الجارين الأبديين روح حسن الجوار والمصالح المشــتركة، وكم نتمنى أن يصل البلدان إلى بناء علاقات حســن جوار وعلاقات تفاعلية لا هيمنة فيها ولا استتباع، لتســتقر بذلك هذه المنطقة الحيويــة من العالم التــي تعتمد على استقرارها سلامة شــعوبها ورفاهيتهم، وليستقر العالم الذي يعتمد كثيرًا على ما تمده به هذه المنطقة.

سيتمتع القارئ وهو يمرّ بين دفتي مذكرات الفريق الأول الركن نزار عبد الكريم فيصل الخزرجي: **الحرب العراقية - الإيرانية (1980 - 1988): مذكرات مقاتل**، وسيشعر بالعرفان للمؤلف الذي أرّخ مرحلة قتالية مجيدة، أثبتت العسكرية العربية فيها أنها ندٌّ يجب أن يُحسب حسابه، لو أتيحت لها الأحوال للانصراف إلى مهماتها الوطنية والقومية، وتركت الشأن السياسي العام للسياسيين.

في هذه المناسبة يرى المراقبون العرب والعراقيون على وجه التحديد، أن الأداء العراقي المتفوّق في خاتمة هذه الحرب كان واحدًا من الأسباب المهمة التي أدت إلى استهداف العراق، وكلنا سمع كيف تضخمت الروايات عن ثالث أو رابع جيش في العالم فور انتهاء الحرب، وكيف قادت هذه القناعة التي أريد لها أن تترسخ في أذهان الناس إلى البدء باستهداف العراق بإثارة سجل حقوق الإنسان وفرض العقوبات واستفزاز القيادة العراقية التي دفعت إلى كارثة الكويت.

إن الجيش الذي نفّذ هذه العمليات الكبرى لم يعد موجودًا الآن، وما حل محله هو شبه جيش مترهل أنيطت به مهمات الأمن الداخلي بعد أن استبيح العراق، وفقد سيادته واحتُل، ثم ترك نهبًا للطامعين ليتحكّموا بمصيره وثرواته. حل المحتلون الأميركيون هذا الجيش بقرار أصدره الحاكم الأميركي بول بريمر، لكن ما بقي منه في ذاكرتنا هو أداؤه المتميز في معاركه، وقبور شهدائه التي تُطرّز الأرض العربية في فلسطين والأردن وسورية، وبصماته على الأرض العربية في كل مكان دعاه الواجب القومي ليتواجد قتالًا

أو تدريبًا، في الجزائر وليبيا الملكيــة واليمن الملكي والجمهوري وفلسطين ومصر في حربي 1967 و1973، والأردن في كل حروبه مع العدو الصهيوني، وسورية أيضًا.

ســيأتي يوم ينهض الجواد من كبوته ويعود العراق سيدًا أبيًّا، وســيبني أبناؤنا وأحفادنا جيشه ليقوم بما قام به الجيش الأبيّ الذي نؤرخ معاركه.

المراجع

1 - العربية

أبو غزالة، محمد عبد الحليم. **الحـــرب العراقية الإيرانية، 1980-1988**. [د. م.: د. ن.]، 1993.

الأحمري، محمد حامـــد [وآخرون]. **العرب وإيـــران: مراجعة في التاريخ والسياسة**. تحرير عزمي بشـــارة ومحجوب الزويري. بيروت؛ الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012.

الخميني، روح الله الموســـوي. **الحكومة الإسلامية**. ترجمة حامد الغار. بيركلي: [د. ن.]، 1981.

ربيع، حامـــد. **نظرية السياســـة الخارجية**. القاهـــرة: مكتبة القاهرة الحديثة، 1969.

الســـيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. **تاريخ الخلفاء**. بيروت: دار الكتاب العربي، 2006.

العـــراق، وزارة الخارجيـــة، اللجنة الاستشـــارية. **النـــزاع العراقي الإيراني: ملف وثائقي**. بغداد: اللجنة الاستشارية، 1981.

كوثراني، وجيه. الفقيه والسـلطان: جدلية الدين والسياسة في إيران الصفوية، الفارسـية والدولة العثمانيـة. ط 2 منقحة ومزيدة. بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 2001.

كوردسمان، أنتوني هـ. وأبراهام ر. واجنر. دروس الحرب الحديثة. ترجمة كلية القيادة والأركان، الإمارات العربية المتحدة.

نديم، شـكري محمود. حرب إفريقيا الشـمالية، 1940-1943. ط 5. بيروت: دار مكتبة الحياة، 1974.

الوردي، علي حسين. دراسـة في طبيعة المجتمع العراقي: محاولة تمهيدية لدراسة المجتمع العربي الأكبر في ضوء علم الاجتماع الحديث. بغداد: مطبعة العاني، 1965.

______ . لمحات اجتماعية من تاريـخ العراق الحديث. 6 ج في 8 مج. لندن؛ بيروت: دار الوراق، 2007.

ج 1: من بداية العهد العثماني حتى منتصف القرن التاسع عشر.

ج 2: من سنة 1831 إلى سنة 1872.

2 - الأجنبية

Books

Abdulghani, Jasim Mohammad. *Iraq and Iran: The Years of Crisis*. London: Croom Helm, 1984.

Addington, Larry H. *The Blitzkrieg Era and the German General Staff, 1865-1941*. New Brunswick, NJ: Rutgers University Press, [1971].

Copeland, Dale C. *The Origins of Major War*. Ithaca: Cornell University Press, 2000. (Cornell Studies in Security Affairs)

Cordesman, Anthony H. and Abraham R. Wagner. *The Lessons of Modern War*. 4 vols. Boulder, Colo.: Westview Press; London: Mansell Pub., 1990-1996.

vol. 2: *The Iran-Iraq War*.

Dees, W. Jack. *Iraqi Military Effectiveness in the War with Iran*. Newport, RI: Naval War College, [1990]. (Middle East Special Studies, 1989-1991 supplement; 4. Special Studies Series)

Department of Defense Dictionary of Military and Associated Terms. [Washington, DC: Government Reprints Press], 1911. (Joint Publication; 1-02)

Goerlitz, Walter. *History of the German General Staff, 1657-1945*. Translated by Brian Battershaw; Introduction by Walter Millis. Boulder, Colo.: Westview Press, 1985.

Hiro, Dilip. *Iran under the Ayatollahs*. London; New York: Routledge and Kegan Paul, 1985.

——. *The Longest War: The Iran-Iraq Military Conflict*. New York: Routledge, 1991.

Karsh, Efraim and Inari Rautsi. *Saddam Hussein: A Political Biography*. London: Brassey's, 1991.

Khadduri, Majid. *The Gulf War: The Origins and Implications of the Iraq-Iran Conflict*. New York: Oxford University Press, 1988.

Marr, Phebe. *The Modern History of Iraq*. Boulder, Colo.: Westview; London: Longman, 1985.

Maull, Hanns W. and Otto Pick (eds.). *The Gulf War: Regional and International Dimensions*. New York: St. Martin's Press, 1992.

Parsi, Trita. *Treacherous Alliance: The Secret Dealings of Israel, Iran, and the United States*. New Haven: Yale University Press, 2007.

Pelletiere, Stephen C. *The Iran-Iraq War: Chaos in a Vacuum*. New York: Praeger, 1992.

—— and Douglas V. Johnson. *Lessons Learned: The Iran-Iraq War*. Carlisle Barracks, Pa.: Strategic Studies Institute, U. S. Army War College, 1991.

——— and Leif R. Rosenberger. *Iraqi Power and U.S. Security in the Middle East*. Carlisle Barracks, Pa.: Strategic Studies Institute, U.S. Army War College, 1990.

Ramazani, Rouhollah K. *Iran's Foreign Policy, 1941-1973; a Study of Foreign Policy in Modernizing Nations*. Charlottesville: University Press of Virginia, [1975].

Stone, David J. A. *Twilight of the Gods: The Decline and Fall of the German General Staff in World War II*. London: Conway, 2011.

Van Evera, Stephen. *Causes of War: Power and the Roots of Conflict*. Ithaca: Cornell University Press, 1999. (Cornell Studies in Security Affairs)

Periodicals

Gause, F. Gregory. «Iraq's Decisions to Go to War, 1980 and 1990.» *Middle East Journal*: vol. 56, no. 1, Winter 2002.

Karsh, Efraim. «Geopolitical Determinism: The Origins of the Iran-Iraq War.» *Middle East Journal*: vol. 44, no. 2, Spring 1990.

———. «Military Lessons of the Iran-Iraq War.» *Orbis*: Spring 1989.

———. «Military Power and Foreign Policy Goals: The Iran-Iraq War Revisited.» *International Affairs*: vol. 64, no. 1, Winter 1987-1988.

McAlister, Melani. «A Cultural History of the War without End.» *Journal of American History*: vol. 89, no. 2 (A Special Issue): *History and September 11*, September 2002.

McNaugher, Thomas. «Ballistic Missiles and Chemical Weapons: The Legacy of the Iran-Iraq War.» *International Security*: vol. 15, no. 2, Autumn 1990.

Ramazani, Rouhollah K. «Ideology and Pragmatism in Iran's Foreign Policy.» *Middle East Journal*: vol. 58, no. 4, Autumn 2004.

Razi, G. Hossein. «An Alternative Paradigm to State Rationality in Foreign Policy: The Iran-Iraq War.» *Western Political Quarterly*: vol. 41, no. 4, December 1988.

Segal, David. «The Iran-Iraq War: A Military Analysis.» *Foreign Affairs*: vol. 66, no 5, Summer 1988.

«The Strange War in the Gulf.» *Merip Reports*: nos. 125-126, July - September 1984.

Swearingen, Will D. «Geopolitical Origins of the Iran-Iraq War.» *Geographical Review*: vol. 78, no. 4, October 1988.

TNDM Newsletter: vol. 2, no. 3, December 1997.

Western Political Quarterly: vol. 41, no. 4, December 1988.

Documents

Grimmett, Richard F. «Trends in Conventional Arms Transfers to the Third World by Major Supplier, 1980-1987.» (Congressional Research Service Report; 88-352, Washington, DC, 9 May 1988).

National Security Archive. «The Oliver North File: His Diaries, E-Mail, and Memos on the Kerry Report, Contras and Drugs.» (National Security Archive Electronic Briefing Book; no. 113, 26 February 2006), on the Web: <http://www2.gwu.edu/~nsarchiv/index.html>.

Torrez, Karla and Vincent Difronzo. «The Iran-Iraq War: Exceeding Means.» (National Defense University, National War College, October 2000).

فهرس عام

- ق -

هذا الكتاب

عبارة عن قــراءة نقديــة ووصفية لمذكــرات الفريق نــزار الخزرجي التي أصدرها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات بعنوان **مذكرات مقاتل**. والفريــق الخزرجي كان ضابطًا بارزًا في الجيش العراقي ورئيسًــا لأركانه في إحدى مراحل الحرب العراقية – الإيرانية. أما الكاتب فهو المستشــار البحري لرئيس الأركان نفســه، ومستشاره لشؤون البحث والتطوير أيضًا. وبهــذا المعنى يمكن القــول إن عســكريًا عراقيًا خاض الحــرب ضد إيران يتصدى لقراءة مذكرات عســكري عراقي خاض بــدوره معارك الحرب ضد إيران منذ اندلاعها في 1980/9/22 حتى توقفها في 1988/8/8، فكانت إحدى أطول حروب القرن العشرين.

عبد الوهاب عبد الستار القصاب

حاز الدّكتوراه في الدّراسات الإستراتيجيّة من كلّية أركان القوّات المسلّحة ويلنغتــن في الهند ومعهد الدّراســات الدفاعيّة والإســتراتيجيّة - جامعة مدراس - الهند. أسّس مركز الزّمان للدراسات الإستراتيجية في بغداد عام 2003، وعمــل مستشــارًا للمركز العراقيّ للدّراســات الإســتراتيجية في عمّان، ومركز الدراســات الإســتراتيجية التّابع للقوّات المســلّحة القطريّة. يعمل حاليًا باحثًا مشــاركًا في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ويشــرف علــى البرنامــج الإســتراتيجي الــذي ينبثــق منــه العديد من المشاريع؛. من أعماله: **احتلال ما بعد الاستقلال: التّداعيات الإستراتيجيّة للاحتلال الأمريكيّ للعراق** (2007). **التّوازن الإســتراتيجيّ للوطن العربيّ** (2004). **التسلّح: بين النظريّة والتّطبيق** (2005).

السعر: 6 دولارات

ISBN 978-9953-0-2930-6

9 789953 029306

المركز العربي